عبد الرحيم مودن

رحلة ابن بطوطة الجديدة





دار الثقافة

رحلة
ابن بطوطة الجديدة

عَبد الرحيم مُودن

رحلة ابن بطوطة الجديدة



دار الثقافة

للنشر والتوزيع

34-32 شارع فيكتور هيكو ـــ ص.ب. 4038

الهاتف : 30.76.44 - 30.23.75

157 شارع لاجيروند ـــ الهاتف : 83.17.17

فاكس 30.65.11 ـــ الدارالبيضاء 20500

الكتـــاب : رحلة ابن بطوطة الجديدة.
المؤلـــف : عبد الرحيم مودن.
الطبعـــة : الثانية 2003

الناشـــر : دار الثقافة - الدارالبيضاء.
الطبـــع : مطبعة النجاح الجديدة - الدارالبيضاء.
الإيـــداع : القانوني رقم 1998/1432.
ردمـــك : ISBN 9981-02-288-8.

ما قبل الحكايــة

لعل الهدف من هذه الحكاية هو الاقتراب من عالم «ابن بطوطة» بأُفقٍ جديد يُحافِظُ عى ثوابِتِ الرحلة وحوافزها المركزية.

ومن أهم هذه الثوابت إرْضَاء نَزْعَةِ الفُضُولِ المعرفي، بالمعنى الواسع، المُلازَمة للإنسان، غير أنَّ أهَمُّ الحوافِز، فَضْلاً عن الرغبة في المعرفة، في رحلة «ابن بطوطة» تكمن في مُتْعَةِ الْحَكْي. وأثناء إملاءِ «ابن بطوطة» لرحْلتِه، كَانَ يَكْتَشِفُ وَضْعَهُ الانْسانِي أولاً، والحِكائِي ثانياً.

هكذا أصْبَحَ المكْتَشِفُ مُكْتَشَفاً. وأصبح «ابن بطوطة»، رحالة العرب والعجم، مُؤسِّساً لنَسَقٍ حِكَائي إلى الحد الذي تحَوَّلت فيه رحلتُه إلى رِحْلَةٍ نَمُوذَجيةٍ أَسَّسَت لِنَوع أدبي حديد.

ولا شَكّ أن هذه المحاولة هي إعادة صياغة الرّحلة من خلال المحافظة على متعة الحكي الدائمة، جَوْهَرُ الحكاية ونُسْغها، دون الابتعاد عن أسئلة عديدة طَرَحَتْها الرحلة، والرحّالة، في الماضي والحاضر. والقارىء لهذا النصّ الجديد، يكتشف النصّ الموازي المشكل من أجْمَل المَنْمَنَماتِ العربية التي عبَّرت عن الرحلة

والإرتحال بإيقاع جديد، تكاملت فيه حركة الإنسان بحركة الكون، حركة الخَطِّ بِحَرَكَةِ العيُونِ المندهِشة أو المفتوحة عن آخرها، حركة الزمان بحركة المكان.

عبد الرحيم مودن

أنا : ماقبـل الرحلة

أنـــا.

أنا «شمس الدين»، أبو عبد الله محمد **اللّواتي** الطَّنْجِي، المشهور بـ «ابن بَطوطَة». وُلِدْتُ بـ«طنجة» يومَ السّابع عَشَر من رجَب سنة 703 هـ الموافق لـ : 24 فبراير 1304م وِلدتُ بأقْصَى نُقْطَة بِشَمال المَغْرب. لا يفْصِلُني عن «جبل الفتح» سوى **أميالٍ** قَلائِل. هُنا، بـ «طنجة» رضعتُ كل ما أتى به البَحْرُ من أجناسٍ ولغات وعادات وعجائب وغرائب. أليست طنجة «مجمع البحرين» ؟! لو جئتم «طنجة» ووقفتُم عند مدخل «مَغارَة هِرَقْل»، لرأيتُم آثار بَصَمَاتِه الضَّخْمَة التي تَحْكِي عن قوتِه الخارقة يوْمَ أن قَرَّرَ فَصْلَ **القارتين**، فانْدَفَعَ الماء ينْحَتُ في الصَّخْر قنواتٍ للتَّواصُل والتعارف، ومنها قناة «البوغاز» فسواءٌ كان الماء آتيا من «**بحر الظلمات**» أو آيباً من «**بحر الرُّوم**»، فلن يستطيع أحدٌ أن يُمَيِّزَ بين الماءَيْن ـــ الماء واحدٌ في كل الأحوال، والصَّخْرُ لا يُمَيِّزُ بين هذا أو ذاك. صَدْرُه مُفْتوحٌ لكُلّ الأمْواج، كل البِحار تَمُرُّ بالبحرين، أو بالبحر الواحد. وشعوب الضِّفَّتَين، شمالاً أو جنوباً شَرِبْتُ من هذا البحر، وَسَكَنَتْ أقوامُها، منذ آلاف السنين...، ذلك الصَّخر. أنا «ابن بطُّوطة»، ابنُ هذا البحر، بحر «طنجة»

الذي تَرَدَّدَ صوتُه بِمَسْمِعي في اليوم الأول من خروجي إلى العَالَم. لم أكن أعرفُ، قبل ذلك، سوى صوتِ الأم، وأنا مازِلْتُ جَنيناً أسْبَحُ في عالَمٍ لا يُشارِكُني فيه أحد. وبِمُجَرَّد خُروجي إلى هذه الدُّنيا الفسيحة، انضافَ صَوْت جديد لم يُغادِرْني في الْحَلِّ والتِّرحال. إنه صوتُ البحر. جِدار مَنْزِلنا الْغَرْبي تُدَغْدِغُه أمواج المحيط، مدّاً أو جزراً، لَيْلَ نهار، سَافَرْتُ دون أن أترك مكاني !! سافرْتُ بِمُجَرَّدِ وِلاَدَتي، مع رائِحَةِ تَوابِل الهند، وكانت وِسادَتِي من حرير الصّين، وشُموعنا في الليل حملتها شمعدانات خزفَية، قُزحيةُ اللّون، صَنَعَتْها أصابع أصحاب هذه الحضارة العريقة... جَواهِر ولآلِىء مِنْ ذَهَب، مشْغُولات من ماس، بَضائع من السِّند والهند، فَرْوٌ من «**بلاد الظُّلمة**» حكايات من عاصمة النُّور «بغداد»، حَاضِرة الإِسْلام، ودارُ السّلام. مدينة «طنجة» دائِمَة السفر دون أن تَرحَل. «طنجة» تَرى وتُرَى. ولهذا سُمِيَّت «طنجة الْعالية». مدينه : هيكلُها من صخر الأزْمِنة الجيولوجية الضَّارِبة في القدم، ودِماؤها من مياه الكرة الأرضية، منذ أيام الطوفان، وسداها من «جْرانِيتْ» الْحضاراتِ المتَعاقِبَة. حِوارُ الأزَل بَيْنَ الماءِ والصَّخْر.. «**أطْلَنْتيد**» كل العُصور بعد أنْ غَابَت «أطْلَنْتيد» الأزمنة الغابِرة في عالم الظلمات، وتفرقت أشلاؤها في كل البحار ولم يعُد يُطالب بها أحد ! ومنذ أيام «الطوفان» لم تعرف إلا الْجَوَلان. «طنجة العالية» مَنارَةُ العُصور، هادية الذين مَرُّوا ـــ ويمُرُّون ـــ من هنا نحو آفاق أرحب... كلهم مَرُّوا مِنْ

هُنا : العِمْلاقُ «أطلس»، رمز قُوةِ البحار، وما تلاه من عمالقة ارتفعوا إلى قِمم الجِبال. فينيقيون ورومان. بَرابر وعَرب. شعوب وقبائل، بيض وسود، حُمْرٌ وصُفر.. طنجة مدينة الإسلام، مدينة السلام.

أنا «ابن بطوطة» الطَّنجي، المغاربي، المصري، الشامي، الحجازي، الهندي، الصيني، التركي، الأندلسي... ابن الضّفتين، ابن كُل الضفاف رحَّالة كل العصور. وإذا كان «**الْحَسَن الوزَّان**» ابن الطريق، فأنا بيتي صهوة جواد، أو سَنام جَمل، سَطْح سفينة، أو قدمان لاتتوقفان عن الرحيل سواء في حالة النَّوم أو اليَقَظة.. كُنتُ أُحوّل غُرْبتي «إلى وطن»، كل الناس أحبابي، وكل الشعوب إخوتي.. والوالد ــ رحمه الله ــ تعلم من التجارة احترام الإنسان. التجارةُ مدرسة الحياة، والتَّاجِرُ مثل الرحّالة، والفرق بينهما أن الناس يرتحلون إليه، والثاني يرتحل إلى الناس.. وداخل كل تاجر يوجَد رحّالة، كما حَدَث لجدّي «سندباد» بغداد في رحْلاتِهِ السَّبْع.

حَجَجْتُ سِتَّ مرات، كُلّ حِجَّةٍ تَخْتَلِفُ عن الأخرى. الطريق واحد، والكَعْبَةُ المُشَرَّفةُ شامِخَةٌ منذ نبي الله «إبراهيم» الخليل... ولكن الرّحلة لاتتكَرَّرُ حتى لو ارتحلنا إلى الأماكِن ذاتِها مآت المَرَّات ! كُلُّ رحلةٍ لن تُشبِه الرحلةَ السابقة، جَرّبُوا، يا أعزَّائِي، أن تُحِسُّوا بالطريق. الطريق واحِد والشُّعورُ مختلفٌ. طريق الصباح يختلف عن طريق المساء، مدرسة الصباح ــ

والمدرسة واحدة ـــ ليست هي مدرسة المساء ! ونحن، كما قال أهل العِلم قديماً، «لا نَسْبَحُ في النهر مرتين». كل سباحة نَسِيجَةُ وَحْدَها... وهذا ما حَدَث. أخذتُ الطُّرُقَ الثلاث الشهيرة آنذاك : **طريق الحرير، وطريق التَّوابِل، وطريق المِلح والذَّهَب**... لم أقْصِد ذلك قَصْداً، فَالرّحّالةُ قد لا يمتلك الطَّريقَ، بل إن هذا الأخير هو الذي يَتحكَّمُ في مسارِه. وكم كُنتُ أنوي الذهاب شرقاً، فاتجهتُ غرباً... وكنت أنوي الذهاب إلى الحجاز أحياناً، فوجَدْتُ نَفْسِي عند سكان «البِرهنكار» بِوجوهِهِم الْكَلْبية.. ولله في خلقِهِ شؤون ! كان الهدفُ، في البِدايَة، الحَجُّ إلى بيتِ الله الْحَرام، فَأصْبَح الحَجُّ فَاتِحَةَ رِحْلَةٍ استَمَرَّت عُقوداً متواصِلَة..

ثَلاثونَ سنَة من الارْتِحال. أكْثَر من مئَة ألف كيلوميتر بَرّاً وبَحراً. ثَلاثُ مرات محيط الأرْض.. مسافات سهلة باللِّسان، ولكنَّها صعبَةٌ على إنسان ذَلِك الزَّمان. زَمانُ القُرون الوُسْطَى التي ارْتَفَعَت فيها رايَةُ الاسلام إلى مَا وراءَ «**بلاد الظلمة**». وطوال هذه العقود الثّلاثَة، كان الهَدَفُ هو المعْرِفَة. والرحّالَة، أثناء رحلته، يجب أن يكون حامِلاً لِزَادٍ لاَ يَتَغير : قلبُ أسَدٍ، وعقْلُ حكيم، خِفَّةُ نَسْر، وبطء سلَحْفاة.. هَفْوةٌ بسيطَةٌ قد تُودِي بحياتِه في بُرْهةٍ وجيزَة !! والْعَجَلَةُ داءُ الرِّحْلَةِ الفَتَّاك. مَرَرْتُ بالطرُق الثلاث، وظَلَّ الطريقُ الرئيسي بالنِّسْبَةِ إلي هوَ طَريقُ المَعْرفَة : مَعْرِفَةُ النَّفْس، ومَعْرِفَة الآخر. في الرِّحْلَة نعرِفُ الآخَر، وَيَعْرِفُنا

الآخر... ثلاثون عاماً مِنَ الارْتِحال. امتهَنْتُ كل المِهَنِ. بائِعُ تمرٍ بِجَزِيرَةِ العرب. معلم صِبْيان. قاض فِي خِدْمَة سلطان «دهْلي» قاضٍ بِجُزر «**ذيبة المهل**». سفير لسلاطين «الهند» و «مالي» والسُّودان.. وقبل ذلك، أو بعد ذلك، سَفيرٌ للإسْلام والسَّلام. أنا «ابن بطوطة» سليل رحّالات مازالو أَحْياءَ إلى اليوم. قرأتُ «ابن جير»، و«ابْن فَضْلان»... وانْحَنَيْتُ بِاحْتِرام لِذِكْرى «مَارْكُوبُولو» عندما زُرتُ الصِّينَ..عُدَّتِي خَرِيطَةُ «الإِدْريسي» وعَتاد أسْلافِي مِنْ «بوْصَلَةٍ» و«أسْطُرْلاب»... ورجعتُ، في كل لحظةٍ وحين، إلى «مُروج» المسْعودي، و مُعْجَمِ «الحَمَوي» و«عجائِبُ المَخْلوقاتِ» للقَزْوِيني... ورِحْلاتِ الرَّحَّالاتِ العربِ فِي مُخْتَلِف الحِقَب... أنا «ابن بطوطة»، الْفَتى اليافِعُ الذي خَرَجَ من «طنجة» ذلِكَ اليوم المنقُوشِ، إلى الآن، في الذاكِرة. كان يوم الخميس 14 يونيو 1325م... كنْتُ في العشرين أو أكثر بقليل... وَسأعُود وأنا شَيْخٌ تَجاوَزَ الخَمْسين. في ذلك اليَوْم الذي مَازَالَ محْفوراً في الوِجْدان... كان ذَلِكَ يوم السادِس من يناير 1354... وهذه المرة بـ «فاس». ولذلك حكاية سيأتي وقتها... لايَهُم العُمْر المحدود.. الرحّالة لاَ عُمْرَ لَه، مادامَ عُمْرُه الْحَقيقي هو عُمْر الأمْواجِ التي لا تَمَلُّ من الهَمْسِ بأسْرار السَّفَر للضّفاف والشُّطآن... عُمْرُه هو عُمْر الرِّيح وهي تَنْقُل أخْبارَه عَبْرَ الآفاقِ والأصْقَاع...

كانَ بإمْكانِي أن أكْتَفِيَ بالرُّكْنِ الخامِسِ من أرْكانِ الإسْلام،

بعد أنْ أنْهيْتُ حِفْظَ الكِتابِ الكَريمِ، وَأعُود إلى حضْن الأبِ المُنْتَظِرِ أوْبَتي على أحَرِّ مِن الجمْر... أما الأمُّ... فلأتْرُك ذلكَ لحينِه... قُلْتُ، كان بإمْكانِي أن أقْنَعَ بِهَذِهِ الحِجَّة التِي كانت جائِزَة الوالِد بَعْدَ حفْظِي للكِتابِ الكَريمِ، وأُصْبِح أصْغَر حاجٍّ بـ «طنجة» العالِية... ويَنْتَهي الأمرُ بأن أشْغَل مَنْصِباً شرْعِياً توارَثت العائِلَةُ مَناصِبَهُ السَّامِية. ولكن... أصبحت الحجَّةُ حجّاتٍ، والسَّفْرَةُ سفراتٍ...

هل تعْرفُون، يا أعِزَّائِي، أنَّ الرحّالة هو الأقْرَب إلى الأطْفال والفِتْيان من كُلّ الكائِنَات ؟! هُما معاً يَشْتَرِكَانِ فِي الاِنْبِهارِ الدَّائِمِ بِالعَالَم، وبالإصْرار علَى نَيْلِ المُسْتَحيلِ. كُل الأمَاكِن جديدة، حَتّى لو كان عُمْرُها آلاف السّنين مثل «الأهْرامات»، أو لم يَتَعَدَّ عُمْرُها دقائق معدودات مثل فَرْخِ دَجاج الصين الذي هُو «أضْخَم من الإوزّ عندنا».... كُل الأمَاكِن مُثيرة للدَّهْشَة حتى لو قطعَها الرحّالة مآت المرّات...

أنا «ابن بطوطة» ابنُ الْبرّ والْبَحْر. سِلاحي الْبَصَرُ والبصيرة. الرّحالَة عيون عَديدة. الرحالة يَرى بأذْنِه وأنْفِه ولِسانِه وحَواسّه الخَمْس أو السّت ! والحاسّةُ السَّادِسَة لا تُكتسب إلا عن طريقِ الاِرْتِحال... وإذَا كان المَثَلُ يقول : «لَيْس الرَّائِي كالسَّامِع»، فأنا أبْصارُكم التي بِها سَتَرَوْن ما لم تَرهُ عينٌ، ولاَ خطَرَ بِقَلْبِ بَشَر، أو تَرَدَّدَ عَلى طَرَفِ لِسان.

أنا «ابن بطوطة»، رَحّالَةُ العرب والعجم... أنا السَّفر.

مصر أم الدنيا

مَازِلْتُ أَذْكُرُ رائِحَةَ الْفَطَائِرِ الشَّهِيَّةِ التي أعَدَّتْهَا أُمِّي ــ رحمها الله ــ في ذلكَ الصّباح الْباكِر من يوم الخَميس، من شهر رجب عام خَمسة وعشرين وسبعمائة [725هـ]. صلَّيتُ الفجر، وشرِبْتُ الشّايَ مَمْزوجاً بِدَمْعِ الْفِراقِ دون أن أَجْرُؤ عَلَى الإِقْتِراب مِنَ الْفَطَائِرِ الْمشتَهاةِ بالعَيْنِ، والْعَصِيَّة على الفم !!

وَتَرَدَّددتْ أُمّي في حَمْلِ الْفَطَائِرِ، وَهِيَ عَلى حَالِهَا بِالصَّحْنِ الْخَزَفِي، وَأَخَذَتْ تُبَسْمِلُ بِصَوْتٍ هامِسٍ، ثُمَّ وَضَعَتْهَا في كِيسٍ مِنَ الثَّوْبِ الشَّفَّافِ، وَأَعَانَتْنِي عَلى وَضْعِ زِوَّادَتِي المُنْتَفِخَةِ بإِكْرامِياتِها الشَّهيرَة فوق كتفي الأَيْمَن. قَبَّلْتُ يَدَها عدة مَرَّاتٍ، وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ حُجْرَةِ الأَب. كانَ البابُ مُوارَباً يَكْشِفُ عن ضَوْءٍ باهِت. دفَعْتُ الباب بِهُدوء، فَانْفَتَحَ طَيّعاً وَكَأَنَّهُ كانَ عَلى مَوْعِد مع طَارِقِه.. كان أَبِي قد انْتَهَى لِتَوِّه من صَلاته، وانطلق يُحَرِّكُ حَبَّاتِ مسْبَحَتِه مُرَدِّداً الأَدْعِيَةَ والأَوْرادَ.

ــ أَهْلاً بِأَصْغَرِ حُجَّاجِ «طنْجَة».

رَبَّت أَبِي عَلى كَتِفي مُشَجِّعاً، وَأَخَذَ يُرَدِّدُ بِصَوْتٍ وقورٍ : «حَجٌّ مَبْرُورٌ. حجٌّ مَبْرُورٌ. ادْعُ لَنا بِذَلِكَ المَكَان الطَّاهِر».

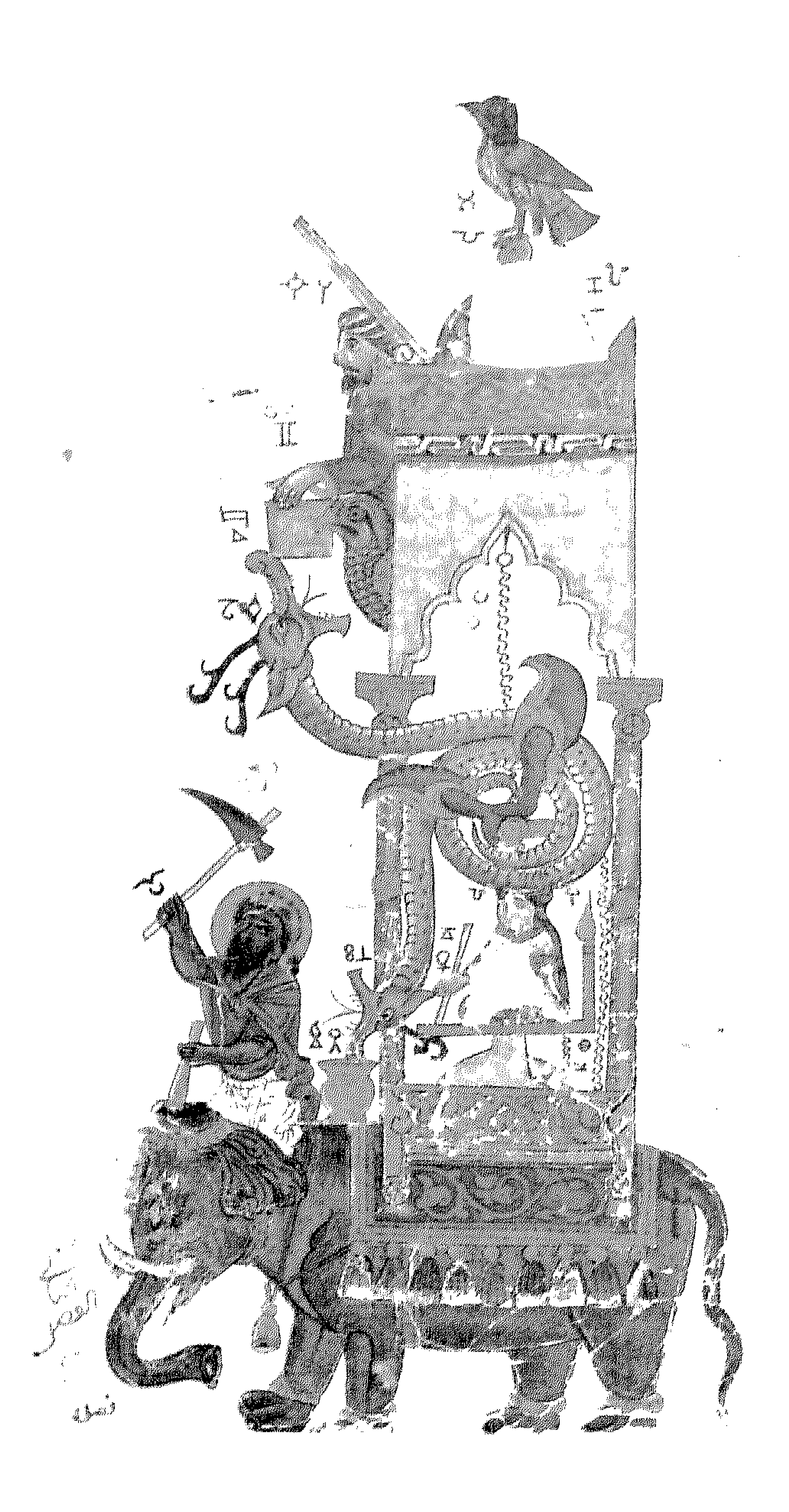
ـــ سَأَفْعَلُ إنْ شَاءَ اللّه...

وَدَسَّ أَبِي قِطعاً نَقْدِيَةً، بَعْدَ أنْ انْحَنَيْتُ عَلى يَدِهِ مُقَبِّلاً أصابعه الْباردة على غيْرِ عَادَتِهَا. وخَرَجْتُ. «خرجتُ من «طنجة» مسقط رأسي.

كَانَ **الْغَبَشُ** مازالَ يَرِينُ علَى دروبِ «طنجة» ذَلِكَ اليوم من بِدَاية صيف 1325م. وَمَرَرْتُ بِالْمِينَاءِ العامِرِ، وَتَرَدَّدْتُ بَينَ الْبَرِّ والبحر، وقَرَّرتُ أخيراً السفَرَ بَرّاً. ففي ذَلِك ثواب. ومن ماتَ في الطَّرِيقِ ـــ كما قال أَبِي ـــ إلى الحَجِّ ، مات شهيداً.

خرجْتُ وحيداً، لا رُفْقة لِي ولا قافِلة ما عدا صورة الأَبَوَيْن الرَّحِيمَيْن. وكان الطريقُ يومَ ذاكَ، طريق المغرب الكبير. كل المغارب كانت مغْرباً واحداً، وَإِيَالَتُنَا الشَّرِيفَة تمتد إلى ما وراءَ «تونس»، وطوالَ الطريق المتَّجِهة، شَرْقاً، كُنْتُ أجِدُ من يُرَحِّب بالمسافِرين من زَوَايا ومساجِد ودور مَوْقُوفَةٍ على رُوَّادِ الطريق... كانت الطريق بَيْتاً شاسِعَ الأَطْرافِ، مُتَعَدِّدَ الحُجُرات الْمُشِعَّةِ بِالأمن والاطْمِئْنان. فَسواء دَخَلْتَ «**تلمسان**» أو «**سرْت**» فكأنك دخلتَ بَيْتاً تَعَرَّفْتَ عليه، وعلى أهْلِه، من قبل !!

وبالرَّغمِ من اشْتِدَادِ الحمَّى عَلَيَّ بـ «بُونَة»، فإنَّني لم أفَكِّرِ في الرُّجوعِ من حيثُ أتيت. وَرَقَّ لِحَالِي بَعْضُ من التقيْتُ بهم في الطريق ، إلى الْحَدّ الذي كنْتُ أشُدُّ نَفْسِي بِعمامَةٍ فوْقَ السَّرْجِ مَخَافَةَ السُّقوطِ، بِسَبَبِ الضَّعْفِ الشَّدِيد، أوْ بِسَبَبِ خَوْفِي مِنَ النُّزول.



تَرَكْتُ بِلاَدَ المغرِب، وَدَخلْتُ بِلاَدَ المَشارِق. وداعَبَتْ أنفي نسائِمُ الْبَحْرِ المخَفِّفَةُ من القَيْظِ الشّديد. هي الإسكندرية إذن، مفخَرَة «**الإِسْكَنْدَر**» المَقْدُونِي. **ومكتبتُها** الشهِيرَة سَارَ بِذِكْرِها الرُّكْبان... «صحيح، إنَّ الْخَبَر لَيْسَ كالْعِيان !! كُنْتُ أعْتَقِدُ أن «طنجة» أكْبَرُ البلدان، وأجْمَلُ الأوْطَان، فَوَجَدْتُ الاسكندرية، تُضَاهِيهَا رَوْعَةً وَفَخَامَةً وَبَياضاً... كل شيء فيها يفوحُ بالبَهَاءِ والفخامَةِ مَنَارُها الشَّهير ذاهِبٌ في الهَواء، يَحْضُنُهُ الْبَحْرُ مِن جَهات ثلاث، وَلَكِنَّ نَظْرَةً وَجيزَةً من إحدى نوَافِذِهِ تَسْمَحُ لَكَ بِاَمْتِلاَكِ الْبَحْرِ دَفعَةً واحدة. ومن غَرائِبِهَا عَمودُ الرُّخَامِ المتَسامِق في السَّماءِ مُنْذُ أيَّامِ الرُّومَان، وَلاَ يَدْرِي أحَدٌ كَيْفَ وُضِعَ فوْقَ مُرَبَّعاتٍ حَجرية ضَخْمَة **جُزَّتْ** بِعنايَة وذكاء. هل كانَ ذَلِكَ فِعْل الإِنس أَمْ الجِن ؟ الله أعلم.

وتَشْتَهِرُ «الإِسْكَنَدَرِيَّةُ» بِكَثْرَةِ عُلَمائِها وصُلَحَائِها. أينما وَلّيْتَ وَجْهَكَ تَجِدُ الصُّوفيين والأتقياء مثل الشَيْخ «أبِي الْعَبَّاس المرسِي» و «أبِي عَبْدِ الله المُرْشِدي» وكثير غَيْرُهم...

وَلِبَاسُ الْعُلَمَاءِ تَعْلُوهُ الْعَمَائِمُ الضَّخْمَةُ الوَقُورَةُ فالإِسْكَنْدَرِيةُ بِلادُ الْعَمَائِم الكبيرة مَشْرِقاً وَمَغْرِباً. سَأَلْتُ يوماً عن أحدهم فَقِيلَ لِي : إنَّهُ يُلْقي دَرْسَهُ بِالْمِحْراب، فَذَهَبْتُ إلى هُناكَ، فَوَجَدْتُ الْعِمَامَةَ ولم أجِدِ الْعَالِم !! وَظَلَلْتُ أَنْتَظِر، مدة طويلَة، إلى أن أنْقَذَنِي أحَدُ الْمُجاوِرين بِالمَسْجِدِ مُسَائِلاً عن حَاجَتِي. فَلَمّا

أَجَبْتُهُ، لم يستطع إخفاءَ ابتسامةٍ عريضَةٍ وهو يشِيرُ إلى المِحْرابِ : العالم أمامَكَ منذ أن وَقَفْتَ بِهذَا الْمَكان ؟!!

كانَتِ العَمامَةَ قد غَطَّت المِحْراب وأَخْفَتِ الْعَالِم المُسْتَغْرِق في مُطالَعَةِ كِتابٍ ضَخْمٍ.

ولم أستَطِع أن أمنع نَفْسِي من حُضور «طنجة» بـ «الاسكندرية». الشوارع هي الشوارع، والحواري هي الحواري.. رائِحَةُ الْبَحْرِ.. آه من هذه الرَّائحَة !!.. والسَّمَك المَشْوِي ببَهَاراتٍ جُنَّ من أجلها الكثيرون، مُغامِرُون وقَراصِنَة وقُطّاع طرق وتُجار شُرفاء.. هنا الحرية والجَمال، وكَأَنّها «طنجة» تُبعَثُ من جديد... الحريةُ والجَمَالُ من نصيب الكل.. مِنْ نَصيبِ النّبات والحَيوان... والإنْسان... الْجَمالُ يَبْدَأُ بالْبَحْرِ الذي يَغْسِلُ عَتَبَاتِ المَساجِد والكَنَائِس والواجِهَاتِ الرُّخامِيَّةُ العَريقَةُ، وفضاءات الآثار المرمرية. وأما الحرّيةُ فَيلْمَسُها الزَّائِرُ في تَعَدُّدِ الأَجْناسِ القادِمِينَ من كل أنْحاءِ الأرْضِ. لُغاتٌ ولهجاتٌ وسحنات عربيةٌ وأعجمية، شُقر وسودٌ وبِيضٌ وحُمْر... مدينةُ الجنّة والنَّار.. الْكُلُّ يُحِبُّ الحياة، وَيَنْهَلُ مِنْهَا حسبَ طاقَته وحاجته في الأَكْلِ والشُّرب واللِّباسِ... وكأنها «طنجة العالية»...

وعندَما بَدَأْنَا نَأْخُذُ العُدَّة لِمُغادَرَةِ هذا المكان شَعُرْنا بِنَوْعٍ من الأسَى ذَكَّرنِي بِمُغادَرتي لـ «طنجة» في ذلك اليوم المعْلومِ. فالْعَيْنُ لا تَشْبَعُ من الإسْكَنْدَرِية وَمَباهِجِها، ولكنَّ الْقَلْبَ يَهْفُو

إلى «**أم الدنيا**» أو «**أم الْبِلاد**» : القاهرة. وصَدَق من سَمَّاهَا كَذَلِك. إنَّها قاهِرة الماضي والْحاضِر. أليست هي «**طيبة**» الفرعونية التي قَهَرَتِ «**الهَكْسوسَ**»الغُزاةَ ؟! بَل إنَّها «قاهِرةُ» كُلِّ مَنْ سَوَّلَت له نَفْسُهُ الْعَبَثَ بِحَجَرٍ مِنَ أحْجَارِ إحْدَى حارَتِها، أو عَتَبَةٍ مِنْ عَتبَاتِ مَنَازِلِهَا. قَهرتِ الْفُرْسَ والرُّومَ وَالأَتْراك وَسُلاَلَة «صَهْيون» وما تزال... وَيَوْمَ دَخلْنَاها في ذلك اليوم، كان الإسْمُ عَلَى المُسَمَّى. مَظاهِر الْفَرْحَة في كُل مَكان، غِناءٌ ورقْص وإيقاعُ طُبول وأصوات مزامير، وَهَدايا سَنِيَّةٌ ومَشاعِل مُضاءة لَيْلَ نَهار... وَأَيْنَمَا دَخَلْتَ يَرْفُضُ البائِعُ تَنَاوُلَ أجْرٍ مُعَيَّنٍ طِوال أسْبوعٍ كامل. الكُلُّ كان يَشْرَبُ نَخْبَ انْتِصَارِ السُّلْطانِ الْعادِلِ «صَلاح الدين الأيُّوبي» على حَمَلةِ الصَّليبِ الْقَادِمينَ مِنْ كُل أنْحاءِ الْمَعْمُور.

والقاهِرَةُ تحتاجُ إلى شَهْرٍ بِأَكْمَلِهِ، أو يزيد، لمن يُريدُ التَّمَتُّعَ بِمفاتِنِها... وبمجرد أن تَدْخُلَها تَشْعُر بالأُلْفَةِ والأَمان. بِهَا ما شِئْتَ من الْوارِدَاتِ والصَّادِراتِ، الكائِناتِ والعَاداتِ. مِآتُ المَآذِن، والْقِبابِ والْقِلاع، وَحَوانيت الْعطارة، والنَّحاسينَ والخَرَّازين... آلاف الأيدي تصنع روائِع الخزف والجِلدِ والخَشَب والفِضّة والنُّحاس على دقَّاتٍ مُنْتَظِمَة لَمْ يَتَغَيَّر إيقاعُها منذ عشراتِ السنِين... وَأَخَذْتُ في هَذِهِ الأَشْياءِ أَهْمِسُ لِنَفْسِي وَكَأَنَّها «فاس»، العامِرة !! والْقَاهِرةُ يَحْرُسُها، بَعدَ الله، حارِسان لاَ يَغْمَضُ لهُما جَفْنٌ : نَهْر النيل الْخَالِد المُسَمَّى بحراً. وهو

كذلك. فهو من **أنْهار الجَنَّة**. يَفِيضُ صَيْفاً عندما تَنْقُصُ الأنْهارُ، وَينْقُص عندما تَفِيضُ الأنْهَار !! وبِهِ من المراكِبِ سِتَّةٌ وثلاثُون ألْفاً صاعِدَةً نازِلَةً بِالْخَيْرات والزَّائِرين لِلضّفَتَيْنِ.

أما الْحارِسُ الثَّانِي، فهي الأهْرامَات الْعَجِيبَة عَلى الضِّفَة الغَربيّة من النيل، وكأنَّها الرَّواسِي العالِية ضَمَّت أسْرارَ عَقْلٍ لم يَصِلْ إليها بَشَرٌ في الهندسَة والطِّب والْحَرْبِ وتَحْنيطِ الْمَوْتَى. وَأَغْرَبُ ما سمعتُه عن هذه الرواسِي الشامِخَات اختلافُ ظاهرها عن باطِنِها. فالظاهِرُ أحْجارٌ مَقْدودَةٌ بدقة، ذات مقاس واحد، تنْطَلِقُ من قاعِدَة عريضَة مُتَّجِهَةً نحو الأعَالِي حتى تَدقَّ في القمّة عَلى شَكْلِ مَخْروط ضَخْم. أما البَاطِنُ، فالفَراعِنَةُ حَمَلُوا قُصورَهُم إلى الدَّاخِل، أو كَأنَّهُم ألبَسُوا قُصورَهُم بهذه الألْبِسَة المَخْروطية. فالدَّاخِلُ إليها سَيَجِدُ الْعَرَبات الحَرْبية وأدوات الزينَةِ، وجَلَسات الحكم، وشَكاوي المظلومِين، وَمَحْصول كل سنة على حِدة، وفيضاناتِ النيل الشهيرة...

ولما سألْتُ مُحدِّثي عن تاريخ بِنائِها، أجَابَنِي أنَّ مَلِكاً من مُلوك «مصر» بناها، قبل الطوفان، واستمر البناءُ ستّين سنة. وأشرتُ إلى لوحة حَجَريّة ضَخْمَة عُلّقَت عن مدخل أكبر هذه الأهرام، حملت رسوماً وأشكالاً لم أتمكن من فهمها إلا بِفَضْلِ دَلِيلي خَفِيف الرُّوح. تقول اللُّوحة : «بَنَيْنا هذِه الأهْرام في ستّينَ سَنَة، فَلْيَهْدِمْها من يريد ذَلِك في ستّمائة سنة. فإن الْهَدم أيْسَرُ من البقاء». وأغْرَقَ دَلِيلي في الضَّحِك عندما لمح الدهشة البالِغَة على

مُحياي... فتدارَك الأمْرُ بقولِه : «سأعلمك قراء الخط **الهيرُوغْليفي**». وَقالَ : قَدَّس الْفَراعِنَةُ الْمَعْرفَةَ. والمَعْرفَةُ مِفْتاح الكون، لذلك تجد هذا الشكل الشبيه بِعَرائس الأطْفال، أو مفتاح البَّوابات الضَّخْمَة في كل رسومهم وكتاباتهم. ورسم الدَّليل هذا المفتاح على الشكل التالي : ☥

والحروف والأرقام تأخذ أشكالَها الهندسية التي أصْبَحت لُغَةً مُتداولة عِنْد الْفَراعِنَة. فرقم المئة يأخذ الشكل التالي : ⅁ . والألف قريبة من زهرة «اللوتس» المقلوبة ⅄ . أما إذا أردنا كتابة المائة ألف»، فإنها تأخذ جسم صغير الضفادع.

كِتابَةٌ مُشَكَّلَةٌ من طيور ونباتات وعيون آدمية وأفاع... وهي كلها ـــ كما أخبرني الدليل ـــ كائنات مقدسة لدى المصريين القُدامى. ويُكْتَب هذا الخط من أعلى إلى أسفل بخلاف خَطنا العربي الذي يكتب، أفقيا، من اليمين إلى اليَسار..

وبالقاهرة الأزْهَرُ الشَّريفُ، والمنازل السَّاحِرة ذاتُ المشربيات الْخَشَبية **الْمُخَرَّمَة** بنُقوشٍ مُتوارَثةٍ أو تشْكيلات الخطوط والرسوم المَطَعَّمَة بالصَّدَف، وعروق النحاس أو الفِضَّة. والزَّائِرُ لِهَذِهِ المدينة الْعَجِيبَة لن يَنْسَى «يَوْمَ الْمَحْمَل» الذي يُعْلِنُ عن بداية تَشْكِيل **الرَّكْب** الْحَجّي المصري كُلَّ عام. ففي هذا اليوم يَتِمُّ تَعْيينُ أمير الرَّكْبِ لحَجِّ هذه السنة، فَيَنْطَلِقُ الْمَوْكِبُ يَتَقَدَّمُهُم الجُنودُ والسقَّاؤون عَلَى جِمالِهم إشارةً إلى دَوْرِهم في إرْواءِ

عطَشِ الحجيج أثْناء مَوْسِمِ الْحَجِّ، وَيأخُذونَ في الطَّوافِ بِالْقاهِرَة وفي رِكابِهم المُغَنُّون والمدَّاحُون ورُواة السِّيرة النَّبويِةِالْعَطِرة، فَهَاجَت مَشاعِري وانْسَكَبَتِ الدُّموع من عيني شوقاً إلى الْبَيْت الحرام.

وَمِنْ أغْرَبِ الْغَرائِب أنَّ بِبِلاَدِ مِصر، من أقصاها إلى أقصاها، دواء عجيب يشفي كل الأمراض، ويمنَع معظم الأدواء. سألتُ أحد المارَّة عن حوانيته، فَقَهْقَهَ بِأعْلَى صَوْتِه، ثم اعْتَذَر وقال، وهو مازال يُغالِبُ الضَّحِكَ : «إنَّهُ دواءٌ لا يُباعُ وَلا يُشتَرى»..

ــ وأين يُوجَد ؟!

هُنا. بِهَذا المَكَان.

فأشارَ إلى قَلْبِه. وَتَابَعَ سَيْرَه.

وَلَمْ أَتَمَكَّن مِنْ فَهْمِ هذا اللغز إلا بعد أن عَاشَرْتُ أهْلَ مصر أياماً، فَفَهِمْتُ السِّر. إنَّه دواء الضَّحِك، هِبَةُ الله لهذا الشَّعب الكريم. كُلُّ شيء يَتَحَوَّل بهذا البَلَد السَّعيد إلى طُرفَة أو نُكْتَةٍ. حتى الْوَباءُ القاتِلُ الذي صادَفْنا اِنْتِشارَهُ بأرْضِ الكِنانَة تَحَوَّل إلى نكتة.

سألَ أحد رُوَّادِ المَقْهَى جَلِيسَه قائلا : رَأيْتَ الطَّاعُون ؟

ــ نعم، رأيْتُه.

ــ أين ؟!

ــ هُنا

أدار السَّائِل وجْهَهُ إلى حيث أشَارَ جَليسُهُ، فَلَمْ يَجِد إلا الطاوِلة الفَارِغَة، فَما كَانَ مِنْهُ إلاَّ أن نَادَى عَلى النَّادِل وهو لا يكفُّ عن الضَّحِك. وأخْبَرَنِى أهل العِلْمِ أن هَزْلَهُم لا يَخْلو من جد، وجدَّهم لا يخْلو من هَزْل. وكثيراً ما طردوا حُكَّاماً مُتَعَسِّفين، أو قُضاةَ فاسِدِين بِهَزْلِهِم الْجَاد !

وبِسَبَب كثرة نكاتهم، أصبحت النُّكتَة تَحْمِلُ أرقاماً. وسمعتُ، بأُذُنَيَّ هاتين، أحدهم يقول : احْكِ لنا آخر نكتة ؟

ـــ النكتة المائة ؟! أجاب الثاني.

ـــ لا.. وصلنا إلى النُّكتَة الخَمسين بعد المئة.

ـــ هذه نكتة جديدة !!.

الشام بلاد الأنبياء

تركنا وراءنا صَحْراء «سيناء» نَقِيَّةً طاهرةً، تَلْمَعُ تحتَ أشِعَّةِ الشَّمْسِ لأولى مع انْبلاجِ الصُّبحِ. مِنْ هُنَا مَرَّ الْكَثير من الأنْبياءِ والرُّسُلِ، وانْتَشَرُوا فِي الأرْضِ حَامِلِين رِسَالَةِ السَّماءِ، قَبْلَ أن تَحْتَضِنَ صَحْراءُ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ آخِرَ الأنْبياءِ «محمد عليه السلام». وتبدأ دَوْرَةٌ حضارية جديدةٌ سَتَعُمُّ الكَون. كان دليلُنا هو النيل. مَررنا بِحَواضِرِ «مصر» ـــ قبل أن نَصِلَ إلَى الشَّامِ ـــ عَلَى الضِّفَتَيْنِ ـــ مثل «منفَلوط» و «أسْيوط»، و «قوص» و «الأقْصُر» الذي يَضُمُّ مَعَابِدَ وآثاراً وقُصوراً فِرعونية عديدة، شَكَّلت ثُلُثَ آثارِ العالم كما أخْبَرَنَا الدَّليلُ.

وفِي منتصف شعبان سنة ست وعشرين من عام... وَصَلْنا أرْضَ الشام. وَلَوْ لَمْ يُخْبِرنا الدّليلُ بِذَلِكَ لَعَرَفْنا الْمَكَانَ بِرائِحَتِهِ التي جَلَّتْ عَنِ الْوَصْفِ. رائِحَةُ التاريخ المقدَّس يعْبُقُ بِها كُلُّ شِبْرٍ من هذه الأرْضِ الطَّاهِرَة. ومن محاسِنِ الصُّدَفِ أنَّ أرْضَ الشَّامِ تَمازَجَتْ فِيهَا روائِحُ الفواكِهِ المعرُوفَةِ وغَيْر الْمَعْروفَة، كما سَيَأْتِي الحديثُ عنها لاحقاً، بِروائِحِ الطُّهْرِ والصَّفاء الْمُنْتَشِرِ بهذا المكان.

«الْخَلِيلُ» مَدينةٌ في حَجْمِ الْكَفِّ، ولَكِنَّها تَزْخَر بِقُبورِ الأنْبِياءِ والرُّسُلِ : «إبْراهيم» و «إسحاقَ» و «يَعْقوب» و«يوسُف» صلوات

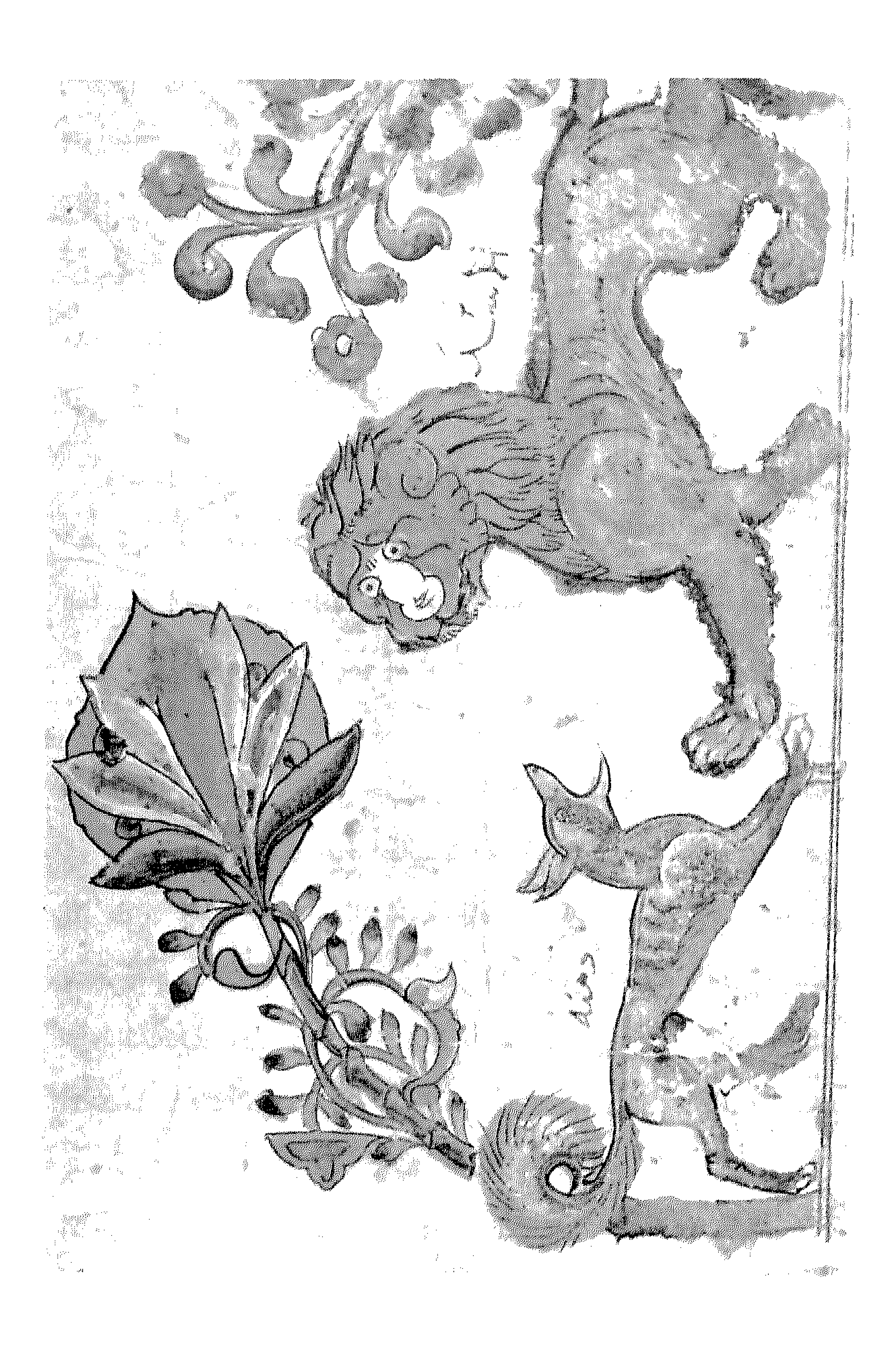
اللهِ عليهم. أما «بَيْتُ لَحْمٍ» فما زالَ مَوْضِعُ ميلاد «عيسى»، عليه السلام، يشِعُّ بِنورِ وَهَّاجٍ، يَنْبُع من كل الْجَنَباتِ، ويُضِيء كُلَّ الْجِهَاتِ.

وأَشْرفُ هَذِه الأماكِن : «بَيْتُ المقدِس» بِمَسْجِدِها الأقْصَى — وهو ثالِثُ الْحَرَمَيْنِ الشَّريفين. مدينَة ضَمَّت كُلَّ الْمِلَلِ والنِّحَل، لاَ تَضيقُ بالآلاف المُؤَلَّفَةِ من الدَّاخِلين إليها كُلَّ وَقتٍ وحين، مهما اختلفت أدْيانُهم.

والقُدسُ مدينةٌ من الصَّخْرِ النَّقِي، دائمُ الضِّياء في كُلِّ الفصولِ. مدينةٌ منحوتة بأظافِرِ الشُّهَداء والقدّسينَ في عُمْقِ الصَّخْرِ دونَ أن تَجِدَ آثار دمٍ أو غَيْرَه. فَهِيَ مدينَةُ التَّسامُح والنَّقاء الدَّائِمِ.

وَقَفْتُ طويلاً أمام «قُبَّة الصّخرة» التي عَرَّج مِنْها النَّبِيُّ إلى السماء. وهِي قُبَّةٌ قائِمَةٌ فَوْقَ مكانٍ عالٍ شبيه بالرَّبْوة، لاَيتِمُّ الصُّعودُ إليها إلا بِواسِطَةِ درجٍ من رُخامٍ وأَكْثَر حَواشِيهَا مُغَلَّفٌ بِالذَّهَبِ. فَهِيَ دائِمَةُ اللَّمعانِ لَيْلَ نَهار.

تَرَكْنَا القُدْس الشَّريفَ جَسَداً وبَقيَتْ أرْواحُنا بِهذا المَكانِ هائمةً في هذا الْفَضاءِ الطَّاهِرِ... وَتتالَتْ أمامَنَا حَواضِرُ الشَّام : عَسْقَلان، الرَّملة، نابُلُس، عجْلُون، صُور، صَيْدا... وَتَوَقَّفْنَا عند «طَبَرِيَّة»، وهدير البحر يَحْكِي حِكَايَتَهُ الأزَلِيّة عن تاريخ لا يُنْسَى. هُنا قبر النبي «شُعَيْب» عليه السلام، وبِنْتُه زَوْجُ «موسَى» كليمُ



اللهِ، وَقَبْرُ «سليمان»... وَزُرْنا الْجُبَّ الذي أُلْقِيَ فيه يُوسُف عليه السلام وهو مَوْجود في صَحْنِ مَسْجِدٍ صغير تَعْلوهُ زاوِية مُتواضِعَة.

ولو حاولتُ ذِكْرَ كُلِّ الحواضِرِ العَريقَة لَما كَفَتْنِي **أسفارٌ** كثيرةٌ... ولن أنْسَى «بَعْلَبَك» وَهِي تفوحُ بِعَراقَةِ الماضِي. فَهِيَ مدينة الشَّمس بِهَياكِلِها وأعْمِدَتِها منذُ ما قبل الرومان. أما الآن فهِيَ مدينة الْجَمالِ في المَأكَلِ والْمَلْبَسِ والذَّوْقِ الرَّفيعِ.

وَصَدَقَ من سَمَّى هَذِهِ الأرض بـ «الْهِلال الْخَصيب». فَطِوالَ الطَّريق، لم نَجِد أمامَنا إلاَّ الْمُنْتَزَهاتِ والحدائق المُثْقَلَة بِأشْجَارِ الفاكِهَةِ المُخْتَلِفَة خاصةً أشجار التُّفاح والمشمش اللَّوزِي إذا كَسَرْتَ نواتَه وَجَدْتَ دَاخِلَه لَوْزَة حُلوةً.. توتُ الأرضِ والتين والفُسْتُق بـ «حماة»، والأنْهار والنواعير والْهَواءُ الطّيب. وَلَعَلَّ شاعِرَ المعرَّةِ ــ وهي مِنْ حواضِرِ الشام ــ كانَ مُحِقاً عند حديثِهِ في «**رِسالَة الغُفْران**» عن أطايِيبِ الْجَنّة التي أحَسَّ بِها في هذه الأرْضِ، وهو المحروم من نِعْمَة الْبَصَر. بين الشَّجْرَة والشجرة، شجرة مُتْرَعَةٌ بِكُل ما لَذَّ وَطابَ. وَلَعَلَّ أَجْواءَ الطَّهارَة التي **رانَتْ** على المَكَانِ، مَنَعَت من أن تَمَتَدَّ يَدٌ واحِدَةٌ إلى شَجَرَةٍ مِن هذه الأشْجار. فالفاكِهَة كانت فاكِهَة الأنْبياء والصُّلَحاء، لاتَمْتَدُّ إليها يدٌ غَريبَةٌ ولو أُكِلَ نِصْفُ تُفاحَة بـ «**أنطاكية**» لَصَرَخَ النِّصْفُ الآخر بـ «جَبَلَة» ! كَيْفَ لا ؟! وعلى بعد **فَرسَخٍ** مِنَ **المُعَرَّة** يُوجَدُ خامِسُ الخُلفاء الرَّاشِدين «عُمَر بن عبد العزيز» الذي كان

يَتَشَبَّهُ بِجَدِّه «عمر بن الخطّاب»، الْمالِكُ لُجَّبَتَيْن يَتيمَتَيْنِ : واحدة صَيْفاً والأخْرى شتاء. كذلك فَواكِهُ هذه الأرْضِ الطَّيِّبَة، وإليكم الحكاية التالية : «يُحْكَى أن وَلِيّاً صالِحاً، يَنْتَسِبُ إلى هذا المَكَانِ، مَرَّ يَوْماً ما بأَحَدِ بَساتِين مدينة «بُخارى» وتوضأ لأداءِ صلاتِه بِأَحَدِ أنْهارِها، فَإذا بِتُفَّاحَةٍ حَمْراء، مُورَّدة الخَدَّين تَتَهادى فوق مِياهِ النَّهْر، فقال : هذا رِزْقُ رَبِّي، فَأَخَذَ يَقضِمُها بِتُؤدةٍ، مُتَلذِّذاً بطَعْمِها الذي اشْتَهَرت بِه أَرْضُ الشّام. وعِنْدَ القَضَمة الأخيرة، تَذَكَّرَ أنَّ للتُّفاحَةِ رَبّاً يحميهَا، وفوقَ ربّ البُسْتانِ رَبٌّ يَرَى الْجَمِيعَ.. فَما كانَ مِنْهُ إلاَّ أن تَقَدَّمَ إلى بَابِ البُسْتانِ، وَقَرَعَ الْبَاب، فَخَرَجَتْ إلَيْهِ جاريَةٌ، وَأَخْبَرَتْهُ بأن البستانَ لامْرَأةٍ قائِلةً : نِصْفُ البستان للسُّلطان، والنصفُ الآخر لي. أما نصْفي، فَحَلاَلٌ عَلَيك، وأما نِصْفُ السُّلْطان، وَهو يومئذ بـ «**بَلخٍ**» فابْحَث عَنهُ.

وَذَهَب الرَّجُل الصَّالِح إلى «بَلَخٍ» فاعْتَرَضَ طَرِيقَ السُّلْطانِ يوْماً ما، وَأخْبَرَهُ بالخَبَرِ، فَأمْهَلَهُ السُّلْطانَ أياماً، وكان لِلسُّلْطانِ ابْنَةٌ رائِعَةُ الْجَمَالِ، وَهَبَتْ نَفْسَهَا للعِبادَةِ، ولمْ تَكُنْ تَرْغَبُ فِي الزَّواجِ إلا منْ رَجُلٍ صالِحٍ، فَلَمَّا سَمِعَت حِكاية الرَّجُل التَّقِي والتُّفاحة، رِغِبَت في الزَّواجِ منه. ولما أَخْبرَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بِرَغْبَة ابْنَةِ السُّلْطانِ، قَبِلَ عَلَى **مَضَضٍ**، وَتَزَوَّجَ مِنْهَا، لَكِنَّهُ تُوفِي مُباشَرةً بعد هذا الزَّواجِ، فَأَهْلُ الصلاح مثل فواكِه هَذِهِ الأشْجَار اليانِعَة، فَبِمُجَرَّدِ أن تُغادِرَ أغْصانَهَا تَموتُ. كَذَلِكَ أهل الصلاح.. مَنازِلُهم الْخُلْواتُ البعيدة. وبمُجَرَّدِ أن يُغادِرُوها تَقَعُ النِّهاية. فإذا

مَرَرْتُم، يَوماً، بِبساتِين التُّفاحِ المُنْتَشِرَة بِهذا الْمَكان، سَتَبْلُغُ آذاناكُم أصْواتٌ ضارِعَةٌ صادِرةٌ عن هذه الحقول العريضة من التُّفاح بألوان خَضْراء أو صفْراء أو حَمْراء... وكأنَّها أشْجار أعياد الميلاد... هذا ما خُيِّلَ إلي أنَّني سَمِعْتُه من بعيد... ولم يُسْعِفْنِي الوقْتُ، ونحنُ نَتَوَغَّلُ بِأرْضِ الشَّامِ، لإرْهاف السَّمْعِ لما كانَتْ تَبُثُّهُ تِلْكَ الأشْجار التي تُعْطِي للمارَّةِ بِدونِ حِساب، وكأنَّها تَتَصَدَّقُ عَلى هَذِه الأرْواحِ الطَّاهِرَة.

وإذا كانت القاهِرَة أمُّ الدُّنْيا، فَإن دِمَشْق أجمَل أبنائها، أكبر حواضِر الشام، مدينة لاَ تَتَنَفَّسُ إلاَّ الجَمال، ولا تفوحُ إلا بِالْعِطر الذي يُنْعِشُ المَوْتَى. دِمشق الفيحاء التي عَجَزْتُ عن تَصْويرِها، فلم أجِد أمامي مرةً أخرى، سوى شيخنا «ابن جبير» الذي يقول : «وأما دمشق فهي جَنَّةُ المَشْرِق، ومطلع نُورِها المُشْرِق، وخاتمة بلاد الاسلام متى استَقَرَّ بناها، وعروس المدن التي اجتلناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتحَلَّت في حُلَل سندسية من البساتين، وحلَّت موضع الحُسْنِ بالمَكان المكين». إنها «غوطة دمشق». قطعة من جنَّة أرضية.

ماذا أقول إذن ؟ كان الحُسْنُ مُنتَشراً في كُل مكان، في النَّبات والإنسان والحيوان أيضا. والنَّاظِرُ إلى وجُوهِ أهْلِ دِمشقٍ «يَرى في قَسَماتِهِم الدَّقيقَة، ولون بَشَرَتِهِم الحَليبي، وشُعورِهِم الشقراء، يرى في كل ذلك أعراقاً وحضارات تمازَجت وتفاعَلت مع أهل الإسلام، فَنَتَجَ عن ذلِكَ المَزيج الرَّائِع من حضارة الرُّوم،

وحضارة الشرق، هَذِهِ الكائِنات اللَّطيفة في المأكل والمشْرَب واللِّباسِ وَالحدِيث.

وَلِـ «دمشق» ثمانيةُ أبواب... فَضاؤها تَتَردَّدُ في جَنباتِهِ أغارِيدُ الطَّيْرِ وَرَنّاتِ النواقيس وآذان المساجد. وفي شمالِها يوجَدُ الْجبَلُ المقدَّس الشهير «قاسْيون»، وهو المعروف عند الرّحَّالَة والزُّوَّارِ بِمَصْعَدِ الأنْبياء عليهم السلام. ومن مشاهده الكريمة، الغار الذي ولد فيه «إبراهيم عليه السلام، وفي آخره الربوة المباركة، مَأْوَى عيسى، وأمّه «الْبَتُول» عَلَيها السلام.

وَلَمْ تَقِف شهرة «دمشق» عند هذا الحدِّ، فَمَفَاخِرُها كثيرة لاَتُحْصَى، مما يَصْعُبُ حَصْرُهُ. ولكِنَّ زائِرَ هذا المكان الطيب، لن يستطيعَ نِسْيانَ جَامِعِهَا الأمَوي الذي لا يوجد له شبيهٌ أو نظير. ومن أهَمِّ ما تَمَيَّزَ بِهِ هذا الْجامِع صَنْعَتُهُ الصَّادِرَة عَنْ مَصَادِرِ الجمالِ على اخْتِلافِ صُنّاعِه وأجناسِه. فديننا الحَنيف، دين الجمال، وأينما وُجِدَ الْجَمال فذلك دليل عَلى شرع الله ودينه. والمتأمِّلُ للجامع الأموي يرى أفانِينَ الصناعة الرُّومِية والاسلامية وغيرهما. أيادي صُنّاع القسطنطينية الذين بَلَغُوا اثنَي عشر أَلْفَ صانِعٍ، فُسَيْفِساء رائعة تُخالِطُها الأصْبِغَة الْغَريبَةُ والْحَواشِي الْمُذَهَّبَة، زُجاجٌ مُلوَّنٌ بألوان تُهَدِّيء الناظِر إليها، صَحْنٌ بثلاث قِباب، صَوامع ثلاث... وقَبلَ هذا أو ذاك، قُبور الأنْبِياء تَشِعُّ بِنورٍ لا يَخْبو، ازْدادَ تَوَرُّداً بالأزْهارِ، وأشْجارِ الْفَواكِه على اختِلاف أنواعِها وأشكالِها.

في الطريق إلى الحج

لَم يَمْنَعْنِي هَذا ٱلْجَمالُ الطَّاغِي مِنْ نِسْيَانِ مَا خَرَجْتُ من أَجْلِهِ، أَلاَ وَهُوَ ٱلْحَجُّ إِلَى بَيْتِ الله الحَرام وعندما سمعْتُ بخُروج الرَّكْبِ الدِّمَشْقي مُتَّجِهاً إلى «الْحِجَازِ»، لم أعُد أَلْوِي على شيء. حزمتُ متاعِي والتحقتُ بالرَّكْب... ولما بَدَتْ مَعَالِم المدينة المنوّرة بِمَسْجِدها النّبوي الشريف رَدَّدْتُ دون شعور :

طلع البدر علينا من ثَنِيّاتِ الوداع
وَجَب الشُّكْرُ علينا مَا دَعَا لِلّه داعٍ

كان المَسْجِدُ النَّبوي الشَّريف يستَقبلُ الْقادِمين من كُلِّ أصْقاع الأرضِ، وهُم يَسْتَحْضِرون تاريخَ الشُّهداء والأبرار، أولئك الذين تركُوا أمْوالَهُم وأولادهم مُهاجرين إلى الله، وأولئك الذين فَتَحوا دورَهُم، واقْتَسَموا التمرة الواحدة، وجُرعَة الماء النَّادِرة مع إخوانِهم في الإيمان، وانتصروا للإسلام والمسلمين.

وَاتَّجه الرَّكْبُ نحو «مكّة» المُكرَّمَة. مدينَة كبيرَة، مُتَناسِقَةُ البنْيان. وَمَرَرْنا بـ «بَدْر» حيث انْتَصَرت فِئَة قَليلَةٌ مُؤمِنَةٌ، على فئة كثيرة باغية. وعندما توسطنا المدينة، وجدنا الْبَيْتَ الحرام، وَرانَتْ على النُّفوس الطمأنينة والسلام. وطار التَّعَبُ دفعةً واحدةً،

واقتربنا من الْكَعْبَةِ الشَّرِيفَة، بناءٌ مربَّعُ الشكل، ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث، ثمان وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة، التي بين الحجر الأسود والرُّكْنِ اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وعرض صفحتِيها من الرُّكن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً. بناؤها بالحجارَة الصُّم السُّمر المتراصة في إحكام، فلا تغيرها الأيام ولا تُؤثِّر فيها الأزْمان، وأبواب المسجد الحرام تسعة عشر باباً، وأكثرها منفتحة على أبوابٍ كثيرة.

وطُفْنا حَولَ الكعبة مُلَبّين مُبْتَهِلين أن يَنْصُرَ الله الاسْلام والمسلمين. ولاشكَّ أن الحِكْمَةَ من القيام بأركان الحج هي تَطْهِيرُ النَّفْسِ، بعد القيام بالرُّكْنِ الخَامِس، مِنْ كُلّ ما يتعَلَّق بِها من أهواء ونزوات. فَفي كُلِّ رُكْن من أركانِه وفي كُلّ مَكان من أمكِنَتِه يَتِمُّ استحْضار المعاناة التي عاناها المؤمن بدينه منذ إبراهيم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والمسلم الحاج، لا يتَردَّدُ في زيارَة هذا المقام الكريم، كُلَّما سَنَحتْ له الفرصة لذلك. فبِالرَّغمِ من أن حَجّاتي قد بلغت ستاً، فالشُّعُور الذي يَنْتابُنِي الآن وكأنني أحُجُّ لأول مرة. ألَيْسَ الْحَاجُّ كائنا جديداً، يَخْرُجُ من الحجّ وكأنَّه وُلِدَ لِتَوّه !! ولم يُثْنِنِي عن ذلك مرضٌ أو غيره، ماعدا إذا كان الأمر فوق طاقتي. ففي إحدى الحجّات التي كنْتُ عائِداً فيها من «الكُوفة» أصابني إسهال شديد ــ ولا حَيَاء في العِلْم أو في الدّين ــ فكانوا يُنْزِلونَني من أعلى المحمل ــ بِسَبَبِ ضُعْفِي الشديد ــ مَرَّاتٍ كثيرة في اليوم... ولم

أزل مَريضاً على هذه الحال حتى وصلْتُ مكة، زادَها الله تعالى شَرفاً وتعظيماً، وطُفْتُ بالبيت الحرام كرَّمهُ الله تعالى طوافَ القُدوم، وكنتُ ضعيفاً بحيث أؤدّي المناسك قاعداً، فطفتُ وسعيتُ بين الصّفا والمروة راكباً فرس أحد الأمراء إلى أن شُفيتُ من مرضي.

«بغداد» مدينة السلام

تَركْنا «مكة» المكرّمة، واتجهنا نحو «النّجف» مثوى آل علي، وشيعته من علماء وفقهاء الأموات والأحياء. والزّائر لهذه المدينة يَجدُ بين الخطوة والأخرى الأضْرِحَة المُقدَّسة المنتشرة في أرجاء المدينة بِقِبابِها الذَّهَبية، وقُبورها المُسَيَّجة بحَواجِز حديدِيّة مُشَبّكَةٍ بِخُطوط كوفية حملت آيات قرآنية وأحاديث نبوية. وتدلّت من أسقف هذه الأضرِحَة النَّجَف ـــ ولعل اسم المكان من ذلك ـــ المصنوع من أفخر أنواع الزجاج بأشكال بديعة تَدَلَّت مثل أعْناق العِنَبِ أحياناً، أو أقراطِ الْحِسان، بنظام بديع يَخْلُبُ الأبصارَ، أحياناً أخرى.

ومَرَرْنا بِمُدن وقُرى عديدة، قبل أن نصل إلى واسطة العقد : «بغداد» أكبر الحواضِر مساحةً وأكثرها سكاناً وأعظمُها تاريخاً، بغداد مدينة السلام، وحاضرة الإسلام عَلى طُول الأيام. ذلك ما كُنّا نَسْمَعُه عن هذه الحاضرة الزّاهِية، ولما دخلنا إليها انْتابَتْنا الدَّهشَة لِما آلَت إليه أحوالُها. وحَضَرتْنِي في هذه الأثناء أوصَافْ

شيخِنا ومُعَلِّمِنا «ابن جبير» الذي مَرَّ بهذه الديار فقال، والحسْرَةُ تأكُل قَلْبَه : «وهذه المَدينة العَتيقَة،........ بالاضافة إلى ما كانت عليه قبل انمِحاء الحوادِث عليها، والْتِفات أعْيُنِ النَّوائِب إليها كالطَّلَلِ الدَّارِس، فَلا حِسَّ فِيها يَسْتَوْقِف الْبَصَر... إلا دِجْلَتُها...».

ولو استرسلت مع «ابن جبير» لَما تَوقَّفَت دموعي، وأنا أتَذَكَّر مَغانِيها، وجسُورِها العديدَة وأشْهَرُها الجِسْرُ الرّابِطُ بين ضِفَّتَي دجلة الشهيرَتَين : إحداهُما كانت تُسمى «الْكَرْخ» والأخرى كانت تسمى «الرُّصافَة». فـ «الْكَرخُ» اشْتَهَرت بِمَقاهِيها العائِمة الصَّادِحَة بالْغِناءِ والأشْعارِ والأنْغَامِ. وَ«بِبَغْداد» حَمَّاماتٌ لاَ تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ذاتَ هَنْدَسَةٍ بَدِيعَة، وخلوات كثيرة مُمَيزة باللونَين الأبْيَض والأسْوَد. فالأبْيَض من رُخامٍ والأسْوَدُ من الْقارِّ اللاَّمِع وكأنّهُ رُخام أسود، وأهل العراق عَرَفُوا القارَّ واسْتَخْدَموهُ في الإضاءَة منذ «السُّومَريين» لِفَوائِدِه في الحرب والسِّلْمِ وَيُجْلَبُ من عين بيت «الكُوفَة» و «البصرة». وزُرْنابِ «بغداد» الأسواقَ الْعامِرَة، ودَخَلْنا الشَّوارِع الفَسِيحَة وأشهرها شارع «الرَّشيد»، وشارِعُ «أبي نُواس» الذي كان لَيْلُه كنَهارِه من شِدَّةِ ضياء المَصابيح المُنْتَشِرَة في كل مَكان. وفَاحَتْ رائِحَةُ السَّمَكِ المَشْوِي فوق الحَطب، فَدَخَلْنا أحد المَطاعِمِ وَطَلَبْنا سَمَكاً، حَيّانا النادِل بأدب، وتَقَدَّمْنا إلى أحواضَ زُجاجِية يَسْبَحُ فيها السَّمَكُ، فاخْتَرْنا إحْداها، فكانت «بغداد» مدينَة السَّمَك الطّازَجِ

بدون مُنازِع ! وبالرَّغْمِ من زيارَتِي لِحَواضِر كثيرة مثل «المَوْصِل» و «تبْريز»، فإن صورَةَ «بَغداد» التي كُنت أحْمِلُها خَفّفت عَنّي مِنْ مَظَاهِر الْخَرابِ السّائِدَة التي تحْكِي عن آخر خُلفاء بنِي العَبّاس، الخليفَة «المستَعْصِم» الذي «دخل عليه التَّتَر ببغداد وذَبَحوهُ بَعْدَ أيام» ـــ كما سبق ذكره ـــ وَدَمَّروا آخِر صَرْحٍ من خلافة الإسْلام، وتحوّلت مياه دِجْلة إلى قَطْران أسْود بعد أن انْمَحَت عَشَراتُ الآلاف من الكُتُب المؤَلّفة في كُلّ العلوم والمعارف. والزَّائر لـ «بغداد» يبْحَث في وُجُوه أهْلِها عن «السّنْدِباد». ألَيْسَ هؤلاء هم أحْفادُه الذين تَشِي ملامِحُهم بالعزْمِ والإصْرارِ ؟ وَتَقدّمْتُ من بِناءٍ فَخْمٍ بِبابٍ مُقَوَّسٍ اعْتَلَتْهُ كِتابَةٌ عَريضَةٌ بِالخَطِّ الكوفي : «مُتْحَفُ بغْداد». وبمجرد أن تجاوزتُ العَتَبة، وجدت بيْضةً ضَخْمَةً، وَكَأنَّها خَيْمَةٌ عَريضَةٌ رَفَعَتْها الرِّيحُ إلَى السَّقْفِ، وأسْفَلُها مربع صغير يَقولُ : بيضة الرُّخ. وأخذْتُ أتَجَوَّلُ بِأنحاءِ المُتْحَفِ، فَرَأيْتُ صُنْدوقاً زُجاجِياً واقِفاً بالطُّولِ يحْمِلُ هيكلاً عَظيماً ضَخْماً قِيلَ إنَّهُ الْحُوتُ الضّخْمُ الذي حَسِبَهُ السِّنْدِبادُ أرضاً بإحْدَى الجُزُر.. ودَخَلْتُ إلى حُجْرَةٍ ثانِيَة، فَوَجَدْتُ تماثِيل من القار المجَمّد لأعْظَم الخُلفاء العَباسِيين «هارون الرَّشيد»، وقد تَوسَّط حُجْرَة المُتْحَفِ بِوَجْهِه الضَّاحِكِ، وهو يرفَعُ يُمْناهُ إلى أعلى وكأنّه رَمَى بِشَيء لِتَوّه. وَتَوزَّعت تماثيل صغيرة مِنَ الْقار المُجَمّدِ لِشخْصِياتٍ عديدَةٍ، توقفت عند إحْداها فكانت لـ «علاء الدين»، وبِجانِبِه الجُمْلَةُ الشهيرة : «اِفْتَح يا

سِمْسِم»، المنتهية بِسَهْم تابعْتُه إلى أن وَجَدْتُ خَيْطاً مُدَلَّى من ثُقْبٍ مُحاطٍ بِدائِرَةٍ مُذَهَّبةٍ، فجَذَبْتُه، فانفَتَحَت كُوَّةٌ في الْجِدارِ، أطلَّت مِنْها كَراكيزُ جلدية عديدة ذات ملامِح ضاحِكَة، وبَدأت تتقافزُ حول أكياس مبقورة بَرَزَت منها دنانيرُ ذَهَبيةٌ لامِعَةٌ تَساقَطت من أيدي هؤلاء اللّصوص الذين اشتهَروا في «ألف ليلة وَليلة». وبالرغْمِ من الحرارة المُفْرِطَة، فَـ «بَغْداد» ذاتُ هواء جاف يُمَتِّنُ الأبدان، ويُنْعِشُ الْقُلوب والوِجْدان وَ لم نَتَوَقَّف عنْ ذَرْعٍ «بغْداد» شَمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً. هاهِيَ «الكاظمية» بمساجِدِها الشَّهيرة ذات القِبَبِ المذَهَّبَةِ والأعْمِدَةِ الرُّخامِيّةِ الزَّرْقاء... المدرسة المُستَنْصِرية بطابوقِها المَتين، ساحَةُ الوَرَّاقينَ بِمَكتباتِها العَامِرَة، وكُتُبِها المطروحةِ على الطريقِ. والْخَاناتُ الْفائِحَةُ بِرائِحَة الماضي مثل «خان جَعْفَر» الذي مازالَ يُغْري بِغُرَفِهِ الغامِضَةِ التي استقبلت، يوماً ما، المسافرين بِرواحِلهم وبَضائِعِهم ونُقودِهِم. «بَغْداد» مُلتقى الطرق والحَضارات والشُّعوب والعادات. كُلُّ شَيء بـ«بَغْداد».

وعندما قَرَّرْتُ مُغادَرَة حَاضِرةِ الإسْلاَم، شَعُرْتُ بالْحَسْرَةِ والأسَفِ، وجرَرْتُ رِجْلِي مُنْكَسِرَ الْخَاطِر وكأنَّنِي أُدْفَعُ دَفْعاً من بَيْتٍ أليفٍ قَضَيْتُ فيه عُمْراً طويلاً.

اليمن السعيد

غَادَرْتُ «بغداد» متجها نحو طريق «اليمن» وتَوَقّفت عند ميناء

«عدن» مَرْسى بلاد «اليمن» على سَاحِل الْبَحْرِ الأعْظَم، مدينَةٌ مَحْمِيَةٌ بِالْجِبَالِ مُتَّسِعَةٌ، مَرْسَى أهل الهِنْدِ وتُجّارْ أرضِ الكِنانَة، ومُلْتَقَى تِجارة المعْمور التي حملتْها السُّفُنُ القادِمَةُ من كل حدب وصوب.

وكانت آخِرُ بلاد اليمن «ظُفار» على ساحل بحر الهند. وهي أقْرَبُ الطُّرق إلى الهند، فالمسافة بينهما لاتَتَعَدَّى شهراً كاملاً إذا كانت الريَاحُ مُواتية، وتشتهر «ظفار» بالسَّمَك المَعْروفِ عِنْدَنا بِسَمَكِ «السَّردين» الذي يمتاز بالسُّمْنَة، ومن الغرائِب أن عَلَفَ دَوابِّهم من هذا السَّمَك !!

والإنْسانُ بـ «ظُفار» يُشارِكُ أَهْلَ المغرب في صِفاتٍ كَثِيرَة في الْعَيْشِ، وَفُنونِ تَدْبِير حياتِهم، وأسماء جَواريهم، وَسَجَاجِيدِ صَلَواتهم، وتفضِيلهم للذُّرى مِمَّا يُقَوّي الرأي القائلَ بأن أصل «صَنْهاجَة»، وبعض قبائل المغرب، من «حِمْيَر» أكْبَرُ فُروعِ الْيَمَن.

وَتُعَدُّ «عُمَان» من أكْبَرِ حَواضِرِ هَذا المَكان، وهي ذاتُ أنْهار وأشجار وبساتين مُثْمِرة، وفاكِهَة من كُل الأنْواع. وزُرْتُ عَاصِمَتها «نِزْوى» بِسَفْحِ أحد الجبال تَحُفُّ بِها البساتين والأنهار وسافرنا من «نِزْوا» إلى «هَجَر»، التي ضُرِبَ بها المَثَل القائل : «كجالب التَّمْرِ إلى هجر». وَإذا كان أَهْلُ «ظفار» يُعلفُون دوابَّهم السَّردين، فإنَّ أهْلَ «هَجَر» يُعَلِّفونَ دوابّهم التمر، فَنَخْلُها أكْثَر من سُكّانِهَا.

والنخْل بِبَعْضِ هذه الْحَواضِر لا يَخْتَلفُ عن نخْلنا، فهو يُعْطي ثِمارَهُ كما يُعْطي النّخْل ببلادِنا. ومنه ما يعطي ثماراً غريبَة. ويُسَمَّى شَجَر «**النَّارْجيل**» الذي يكْثُر بـ «ديبة المهل». ونباتُه شبيهٌ بالرؤوس الآدمية التي تَتَدلَّى بِأوْجُهها الضَّاحِكَة أحياناً، الْباكِيَة أحياناً أخرى. رؤوسٌ آدميةٌ بِعُيونِها وأفواهِهَا، وألْيافِهَا المتدلّية مثل الشعر... وكَم مَرّة فَزِعْتُ من العُيون الجاحِظَة للرؤوسِ المتدلِيَّة من هذه الأشجار... كان الجوزُ لا يختلفُ عن الرأْس الْبَشرية في قليل أو كثير... وفوائدُ هذه النباتات كثيرة سواء تَعَلَّق الأمْرُ بِلُبِّها الطَّازَج، أو بِألْيافِهَا التي تُصْنَعُ منْهُ حِبالٌ تُحْزَمُ بِها ألْواح المراكِبِ عِوَضَ اسْتِعْمالِ الْمَسامِيرِ الْحَدِيدِية.

بلاد الظلمة

كُنْتُ قد سَجَّلْتُ فِي أَوْراقِي أَنَّ لِ «**ابْنِ فَضْلاَن**» دَيْناً علي. ووعَدْتُ نَفْسِي بِتَسْدِيدِهِ فِي أَقْرَبِ الآجالِ. كانَ هذا الدَّيْنُ هو أن أَسْلُكَ الطريق التي سَلكها نحو مَلِكِ الصَّقَالِبَةِ دونَ أن يَصِلَ إِلَى هذه الْبِلاَدِ. فالرَّحّالَةُ، كما أَخْبَرْتُكُم، يملِكُه الطريق دون أن يملكَ الطَّريق. ذَلِكَ ما حَصَلَ لرحَّالة عصره «ابن فضلان» الذي أَمْضَى ثلاث سنواتٍ في رحلته دون أن يُنْجِرَ سِفَارَتَه التي كُلِّفَ بها من قِبَلِ «المقتدر» الْعَبَّاسِي لَدَى مَلِكِ «الصّقالِبَة». كيف حدَثَ ذلك ؟ حتَّى لا أُطيلَ عَلَيْكُم، أَقْرَأُ عليكم هذه الفقرة القصيرة من أَوْراقِي، وهي تَفِي بِالْهَدَفِ الْمَقْصودِ. «تَوَغَّلَ «ابنُ فَضْلاَن» في هذا المكان الْغَرِيبِ، بعد أن عَبَر نَهْرٌ «جيحُون» — وهُوَ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي آثَارٍ كثيرة — ووصل إلى «بُخَارَى»، وظَلَّ مُسْتَمِرّاً في سَيْرِهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى نَهْرِ «الْفُولْجَا».. فجأة خَرَج أُناسٌ وكأنَّهُم مَرَدةٌ، طِوالٌ كَأَشْجارِ النَّخْلِ، مُحْمَرُّو الْوُجْناتِ، كُلُّ وَاحِدٍ منهُم يَحْمِلُ خِنْجَراً أو فَأْساً أو سَيْفاً، وأجسادُهم مَوْشومَةٌ بوشُومِ الأَشْجَارِ أو وُجُوهٍ غَرِيبَةٍ وكائِناتٍ آدَمِيَة أو غير آدمية... وتَعالت أَصْواتُهم الْمُرْعِبَةِ وأحْسستُ بأن قدَميّ تَرتَفِعَانِ عن الأَرْضِ...»

وَضَعْتُ الْقَلَمَ جَانِباً، وَرَثَيْتُ لِحَالِ «ابن فَضْلان» مع هؤلاء الْقَوْمِ.. ولكن، رُبَّ ضارَّةٍ.. نَافِعَة ! فَلَوْلاَ هَذَا الاخْتِطاف، لما عَرَفْنَا شيئا عنِ رِجَالِ الشَّمَالِ، وعاداتِهم الغريبة مُنذ ما يزِيدُ على ألف عام.

أَعُودُ بِكُم الآن إلى أرْضِ «الصَّقَالِبَةِ» لأُسَدِّدَ دَيْنَ «ابْن فَضْلاَن» بَعدَ أنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ حدودِها على النَّهْرِ المتجمِّدِ «الفُولْجَا». ها هو الزمن يعود إلى الوَراءِ بِفَضْلِ هذه الرحْلَةِ التي أَنْعَمَ الله بِها عَلَيَّ، دُونَ أن تُغادِرَنِي صُوَرُ رِحْلَةِ «ابْنِ فَضْلاَن» في القرن العَاشِرِ للميلاَد.

وأَوَّلُ ما لَفَتَ انْتِباهنا بِهَذِهِ الأَصْقَاعِ تَدَاخُلُ الليل بالنَّهارِ، والنَّهارِ باللّيْل. وكنت قد وصلتُها في رَمَضَان. وبِمُجَرَّدِ أن صَلَّيْنَا المغرِبَ أَفْطَرنا فُطوراً تَخَلَّلَهُ آذان العِشاءِ في نفس الآن ؟! وَصَلَّيْنَا صَلاَةَ العِشَاءِ بَعْدَ الانْتِهَاء مباشرة من صَلاَةِ المَغْرِب !! واخْتَلَط عَلَي الأمر إلى الحدّ الذي كنتُ أسأل مُرافِقِي عن آذان كُلِّ صلاةٍ من الصَّلواتِ الخَمْس. ففي يوم من الأيام، كنتُ أَنْتَظِرُ مع مُرافِقي صلاة العِشاء، فسمِعْنا الآذان، فخرَجْنا لأداءِ الصّلاة، فإذا الفَجْرُ قد طَلَع ! وحدَّثَنِي المؤذنُ أنَّهُ طوال شهْرٍ كامل لم يذُق النَّومَ خوْفاً من أن تفُوتَه صلاة من الصَّلواتِ. فالإنْسانُ يضَعُ الْقِدْرَ على النَّارِ أثناء المغرب، ثم يُصَلِّي الْغَداة، وهِيَ لَمْ تَنْضُجْ بعد !! ومَسافَةُ فرْسخٍ، وقتَ طُلوعِ الْفَجْر، لاَ يَصِلُها صاحِبُها إلاَّ بَعْدَ أن يَعُمَّ الظَّلاَمُ، وَتَنْتَشِرَ الكَواكِبُ في السماء !!



هذه هي بدايةُ «أرضِ الظُّلْمة» الليلُ يُطارِدُ دائما النَّهار. بينها وبين أرض «البَلْغار» أربعونَ يوما، والْجَلِيدُ كانَ قَدْ انْتَشَر في كُل مَكان، وَمَا أَحْمِلُه لا يَفي بالمَطْلوب. فالرِّحْلَةُ في هذه المَناطِق المتَجمِّدة تحتاجُ إلى اللِّباسِ الثَّقيلِ والأكْلِ الجَيّد والرَّاحَةِ الملائِمَة، كما سَيَرِدُ ذِكْرُه، بِهذِهِ الأَصْقاعِ المُخيفَة. فما كانَ مِنّي إلا أن أخّرتُ زمنَ هذه الرّحلة حتّى تَتوفّر لي العُدّة الضرُوريَّةُ. وأثْناءَ ذَلِكَ، وَصَلَنِي عن هذه الأرْضِ الْغَريبَةِ ما يَشيبُ له الوِلْدان، فالمسافِر، كما أخبرتكُم بذلك، لا يُسافِرُ بواسطة الدَّوابِّ الشائعة، بل عن طريق العربات المجرورَة بالْكِلابِ ذات الأظافِرِ المَتينَةِ التي تُساعِدها على الانْغِراسِ في الجَليدِ. وَهذِهِ العرباتُ حَمّالةٌ للإنْسانِ والسِّلَعِ أو المُؤنِ. وإذَا كانَ للرّحالةِ دليله من الإنسان، فهؤلاء دليلُهم هو الْكَلب !! وثروةُ الإنسان تُقاسُ بِعَدَدِ كِلابِه التي قد يصِلُ الواحدُ مِنْهَا ألفَ دينار أو نَحْوَها. والكِلابُ بِهَذِهِ الأرْضِ مُدَلَّلَةٌ، لا يَضْرِبُها أصحابُها ولا **تُنْهَر** من أيّ كان !! وإلاَّ انْتَابَهَا الْغَضَبُ، وَفَرّت تَارِكَةً المسافِرَ أو صاحِبَهُ للضَّياعِ في هذه البِقاع الُخيفَةِ. ومن شِدَّةِ احْتِرامِهم للكلابِ التَّبَرُّكُ بِعُوائِها، وَهُمْ يَعْتَبِرونَ ذلِكَ فَأْل يُمْنٍ وَسعَادَة. ولذَلكَ فهي مقدَّمةٌ في الطَّعام على الإنسان. الكَلْبُ أولا ثم ابن آدم ثانيا ! والتَّعامُل بين المسافرين وسكان بلاد الظُّلمة لا يَتِمُّ إلاَّ في الظَّلام. فبعد أن يقطع المسافِرونَ أربعين مرحلة، ينزِلونَ عند الظُّلْمَة، ويتْرك كلُّ واحدٍ ما جاء به من تجارةٍ ومتاع بذلك، ويعودون من حيث أتوا، وفي

الغَدِ يتَفَقَّدونَ ما تَرَكُوه، فيجِدُون مَحلَّها جُلود **السُّمور والسِّنْجابِ والْقَاقم**، وهو أحسن أنواع الفراء، إذ تُساوِي الفَروةُ الواحدة منه ببلاد الهند، على سبيل المِثال، ألف دينار التي تُعادِل بِذَهَبِنا الشَّيْء الكَثِيرَ ؟! فإذا اقتَنَع الظَّلام بالتَّجارة المتروكة فذاك، وإذا لم تُرضِه المُقايَضَةُ تَرَكَ الْبِضَاعَة مكانها. ويبدأ الحِوارُ الصَّامِتُ بين الطَّرَفَيْنِ إما عن طريق إضافة سِلع أخْرى مُقنِعة، أو قد يسْحَبُ أهل الظُّلْمَةِ بِضاعَتَهم، تارِكِين السِّلْعَة الواردة كَدليل على عدم اقتناعهم بالثَّمن المُقدَّمِ من طرف التُّجار الوافِدين، ولا أحد يَعْرِفُ شَكْلَ البائع أو المشْتَرِي، هل هو مِنَ الإنْس أو لجن ؟ الظلامُ، فقط، هو سيِّدُ المكان.

وَجُلُود هذه الْبِلادِ لاَ يَدْخُلُها الْقُمَّل، كما أنَّها مُفَضَّلة لدى أُمَراء الصّين وكبار تُجَّار فارس والعراق.

هذه الأرضُ تتنفَّسُ الأسْرار، لاَ صَوْت فيها إلا صوت الْعَواصف في صحراء جَليدية شاسِعَة.

وتابَعْنا طَريقَنا مُتوجّهين إلى القُسْطَنْطينية الْعُظْمَى، حَاضِرَة الأتْراك وعاصمة سلطانهم. وعندما اقتربنا من مشارف المدينة، جاءتنا أصْداءُ النَّواقِيسِ الضَّخْمَةِ التي تُصِمُّ الآذان، بسبب تداخُل دقَّاتِها وامْتِدَادِ صَداهَا المُتَرَدِّدِ في الفَضَاءِ العَريضِ.

والقُسْطَنْطِنية مدينةٌ مترامِيةُ الأطْرافِ، فَسيحَةُ الأرْجاء

يشْطُرها نَهْرٌ عَظيمٌ يُشْبِهُ وادي العدوتين، نهر أبي رقراق الفاصِل بينَ عدوتي سَلا والرّباط. وأحد قسمي القسطنطينية يُسَمَّى «اصْطنبول»، وهو يوجَدُ بالعدوة الشرقية من النَّهر. أما القسم الثاني الذي يوجد بالعدوة الغربية، فَهُو شديد الشَّبَه بِرباط الفتح القريبة من النهر. ويَسْكُن هذا القِسْم النَّصارى أو المسيحيون. ويضُمُّ كنائس ومساجد، وأَجْناس من أهل الكتاب أو الذين لا كتاب لهُم. وَتَنَوُّعُها لا يقتصر على السابق، بل يمتَدُّ هذا التَّنَوُّع إلى الطَّبيعَة من أشجار وجبال وأنهار.

وأكبر مدن الأتراك «**خوارزم**» وَبِخارِجها نَهْرُ «جيحُون»، لذي سبقت الإشارة إليه، واتجهنا نحو «**بُخارى**»، بلد الطَّاغية «تَنْكِيزْخان» الذي كان حدّادا بهذه الأرض. وَعُرِفَ بِحُبِّهِ لسَفْكِ الدِّماء، وتدميره لِكُل بِناء قائم في «**بُخارى**» و «**سَمرقَنْد**»، و«**ترمذ**»، بل عبَرَ نهر «جيحون»، مُكتَسِحاً مَدينَة «**بلخ**»، مُتوغّلاً في بلاد «**خُرسان**» و «**عِراق العَجَم**» إلى أن وَصَلَ إلَى حَاضِرَة الإِسْلاَم، وجُرْحِ سائِر الأيّام، «بغداد»، وَنَكَّلُوا بِأَهْلِهَا بعد أن ذَبَحُوا آخر خُلَفائِها «المُسْتَعْصِم» بالله العباسي، وَرَمَوا بِمَكْتَبَتِها العامِرَة إلى نَهْرِ «**دِجْلة**» الذي اسْوَدَّ ماؤه وسالَ مثل القطران الأسود بعد أن انمحت آلاف الأسْفار في الطب والهندسة والأدب وسائر العلوم، وهلِك في هذه الفتنة أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم...

وَلمْ يبق أمامي إلا أن أشُدَّ الرِّحَالَ، بعد أن انْثالَت على ذهني الخَواطِرُ السَّوداء والهَواجِس المُتتابعة لِمَا آلت إليه أجمل المدن، وَعَروسة الحواضِر. وامتَدَّ أمامي طريقُ «خراسان»، وأنا أحْلُم بِبلاَدِ «الهند»، بلاد السحر والخيال.

الهند والصين

وَصَلْنَا إلى وَادي «السِّنْد» المعْرُوف بـ«بَنْج آب»، أي المياه الخَمْسَة والمسافةُ الرَّابِطَةُ بين بلاد «**السِّنْد**»، ومدينة «**دهْلِي**» تُقَدَّرُ بِخَمْسين يوماً في أَحْسَن الظُّروف والأَحْوال.

وفي كُل شِبْرٍ من بلاد الهِند أُعجوبة يَحَارُ في تَفْسِيرها الذِّهْن واللسان. وَصَدَقَ من قال بِأَنَّ الْهِنْد بِلاد السِّحْر والخيال؛ أُنَاسٌ يصْعَدُون إلى السماء بِحِبَالٍ نَازِلة مثل الْمطر، وبمجرَّد أن يَصِل إلى **شِغَاف** ٱلسَّحَابَةِ الأُولى، تُغَيِّبُه السَّماء، وتتراجع الحِبال من الأَسْفَل إلى ٱلأَعْلى، مرتدَّة إلى السّماء، وكأنَّهَا أَفَاع انْسحبت إلى جُحُورها في لمْح البَصَر، وآخَرُونَ يَرْتَفِعُونَ عَن الأَرْض بدُون أجْنِحة.

أَعَاجِيب لاَ تُعَدُّ ولا تُحْصَى، مُتعبِّدُونَ فِراشُهم من مسامير ناتئة، وآخَرُون لم يُغَادِرُوا مواقِعَهُم منْذُ أشْهُر عديدة، وَمُتَأَمِّلُونَ لم يُغَيِّروا من أَكُفِّهم المرْفُوعة وأَرْجُلهم المقرفصة أياماً طِوالا. وسَألنا عن ذلك، فقيل لنا : إنَّها رِياضَةُ الرُّوح والجَسَد، يَتمُّ، من خِلالها، التَّغَلُّبُ على نَوازِع النَّفْسِ الشِّرِّيرَة ـــ والنفس أَمَّارَةٌ بالسُّوء ـــ بِإلْغَاءِ كُلِّ مَا يَمُتُّ إلى الدُّنْيا بِصِلة.

ومن أغْرَبِ ما سَمِعْتُ بِبِلاَدِ «الْهِنْدِ» إحْراقُ المَوْتَى رِجَالاً ونِسَاءً شِيباً وَشَباباً، من فِئَة «**آلْبَرَاهِمَة**» وهم أكْبَرُ فئاتِ الهند. أما المسلمون، فهم بحَمْدِ آللّه، يدفِنون موتاهُم حسب شريعة الإسلام.

وسمِعْتُ حِكايات يَقِفُ لها شَعْرُ آلرَّأْس، عن مهرجاناتٍ ضخمة تَحْرِقُ فيه النساء أنفسهن بعد وفاة أزْواجِهن، والمرأة المحرُوقة تَكْسِبُ شُهْرَةً ذَائِعَةً، وَيُصْبِحُ بَيْتُها ذَا شَرَفٍ عَظِيم، أما المرأة التي لا تحْرِقُ نَفْسَها، فإنَّها تَنْحَطُّ في أعين الناس، بل إنَّها تُنْعَتُ بالعُقُوقِ وعدم الْوَفاء.

لَمْ أُصَدِّق ذَلك، إلى أن رأيتُ ذلك المهْرجان الغريب رأي العَيْن، في ذلك اليوم الذي لا يُنْسى. تدقُّ الطُّبول، ويرتَفِع صوتُ الأبواق، ورأيتُ أحد أمواتِ الهُنُودِ قد وُضِع فَوقَ حُزْمَة حَطَب ضَخْمة، وتقدَّم بعضُ أفْراد عائلتِه، وأَشْعَلوا النار، والبعض آلآخر يؤجِّجُها بحَطَبٍ جديد، ثم جاءت زوجة الميّت، في كامل زينَتِهَا وكأنها عروس تَحْتَفِل بِلَيْلَةِ زِفَافِهَا، وتَرَجَّلَتْ عن جَوَادِها، واتَّجَهَت بِهُدوء نَحْو النَّار الْمتَأَجِّجَة، وكأنَّهَا تتجوَّلُ في إحدى الْحَدائِق، والناس يَقْتَفُونَ أَثَرَهَا بِأَهَازِيجَ فَرِحَة، وَآلأَنْغَامُ مُتَصاعِدة، إلى أن وصلت إلى **المحْرقَة** العَظيمة، فاقْتَربت من النَّار وتمدَّدَتْ بِهُدُوء بجانب زَوْجِهَا الْمُحْتَرِق، وكأَنَّهُما لم يُغادِرا حُجْرة نَوْمِهِما !!

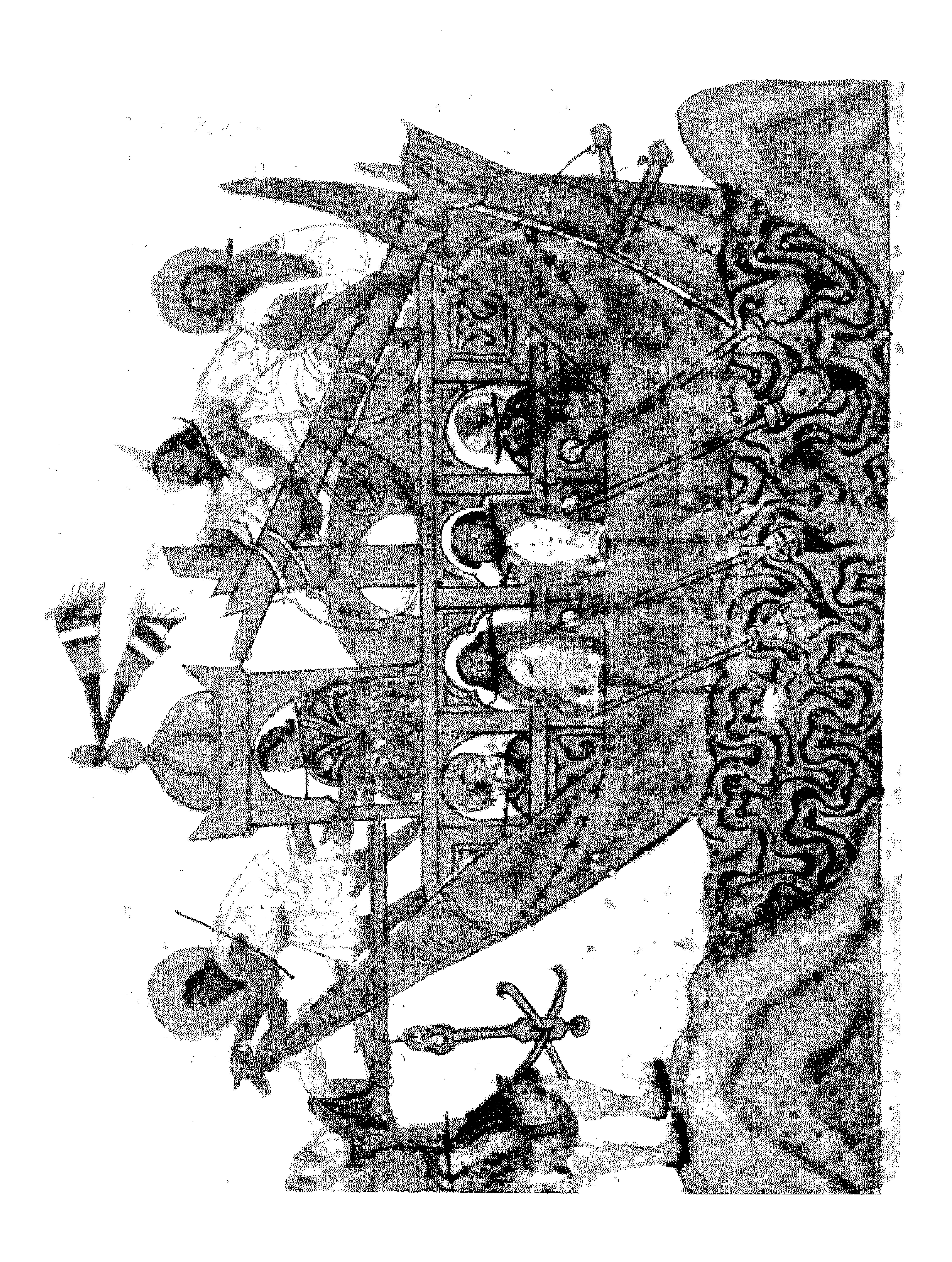
وظَلَلْتُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ لِذلك وكأَنَّني تَحْتَ تَأْثِيرِ كَابُوسٍ امْتَدَّ زمناً طويلاً، رأيتُ فيه ثَلاَثَ نساء يَحْرِقْنَ أَنْفُسَهُنَّ بعد وَفَاة أَزْوَاجهنَّ في معركةٍ من المعارك. ولكن الغريب في هذا الاحْتِفال هُوَ عَدَم إقْدام النّسْوة الثلاث على إحْراق أَنْفُسِهِنَّ مباشرةً بَعْدَ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ، بَلْ يَنْطَلِقْنَ، قَبْلَ ذلك بِثلاثة أَيَّام، في الغِناء والطَّرب والرَّقْصِ والأَكْل والشَّرابِ، يَلْبَسْنَ أحسن اللِّباسِ، وَيتَزَيَّنَّ بأَجْمَل الْحِلِيِّ، فالموتُ حياةٌ أُخرى سَيُلاَقِينَ فِيها أَزْوَاجَهُنَّ كَمَا عَهِدْنَاهُنَّ وَزِيادة ! وفي اليوم الرَّابع، تقدَّمْنَ بِهُدُوء، في كامِل زينَتِهِنَّ، تَفُوحُ منهن رَوائح الْعِطْر، وتَتَصَاعَدُ ٱلأَبْخِرَةُ الزَّكِيَةُ ٱلَّتِي تَشْتَهِرُ بِهَا ٱلْهِنْدُ... وكانت كُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْمِلُ بِيُمْنَاهَا جَوْزَة «نَارْجيل» وهي لا تَكُفُّ عن الاِبْتِسام، وَبِيُسْرَاهَا مرآةٌ تتمَلَّى فيها جَمَالَهَا وَزِينَتَهَا.

أما «الْبَراهِمةُ» فَيَحفُّونَ بِهِنَّ مِنْ كُلِّ ٱلْجِهَاتِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ من هذه الطَّائفة يَحْرِصُ عَلَى تَبْليغ رِسَالَتِه إِلَى أَحَدِ أَفْرَادِ عَائِلَتِه فِي ٱلْعَالَمِ ٱلآخر. هذا يَشْكُو لأُمِّه المتوفِّيَّة ما فعلَهُ أَقْرِباؤُهَا بِزَوْجَتِه، وَذَاكَ يُطَمْئِنُ ٱلأَبَ الْمُتوفَّى على مَحْصُول هَذا العام، والثَّالِث يُخْبِرُ أَحَد الأَعْمام بِرُجُوعِ الأَخِ الأَصْغَر بَعْدَ غِيابٍ طويل... والنِّسَاءُ لاَ تُفَارِقُهُنَّ ٱلاِبْتِسَامَةُ، وَهُنَّ يُلَبِّينَ ٱلرَّغَبَات ٱلْمُتهاطِلَة بِهَزَّاتٍ مُؤَدَّبة من رُؤُوسِهِنَّ. وَأَنَا عَلَى هَذِه ٱلْحَالِ، وَجَدْتُ نَفْسِي فِي خِضَمِّ ٱلأَمْوَاجِ ٱلْبَشَرِيَّةِ المتَّجِهَة إلى المِحْرَقَة، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعْنَا نحو ثلاثة **أميالٍ**، انْتَهَيْنا إلى مكانٍ مُظْلم، شبيهٍ

بالدُّغل الكثيف، كَثير المياهِ، وتَوَزَّعَت عبر فَضَائِه أَرْبَعُ قِبَابٍ مُتَساوية الحجم. وأَمام كل قُبَّةٍ صنَمٌ من الحِجَارة، لعلَّهُ معْبُودُ هؤلاء الْبَرَاهِمَة، ووسَط الْقِبَابِ وجدتُ بحيرة ماءٍ مُسَيَّجَة بأَشْجار كثيفةٍ لا تتسرَّبُ منها أشعَّة الشَّمْس. كانت حَفِظَكُم ٱللَّهُ، مِثْلَ ٱلْقَبْرِ ٱلْمُظْلِمِ، أو كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ من أَرْضِ الجحيم الذي لا تَتَرَدَّدُ فِيها إِلاَّ أَنَّاتُ المعذَّبين، وفَحيح الأَفَاعِي.

ونزلت النِّسْوَةُ الْبُحَيْرَةَ، بعد أنْ نَضَيْنَ عَنْهُنَّ ثِيَابَهُنَّ وَأَزَلْنَ حِلِيهِنَّ، فَتَصَدَّقْن بِهِ كَآخِرِ ما يَرْبِطُهُنَّ بِالدُّنْيا، ثُمَّ خَرَجْنَ وَلَبِسْنَ ثِياباً خَشِنَة غَيْرَ مَخِيطَةٍ وتقدَّمن من النَّار. وَرَأَيْتُ إِحْدَاهُنَّ تَقْفِزُ نحْو النَّارِ ضَاحِكَةً، وكَأَنَّهَا تَقْفِزُ نَحْوَ نَهْرٍ للسِّباحَة أو آللَّعِب، وَلَمْ يُمْهِلْهَا ٱلْمُحِيطُونَ بِٱلْمِحْرَقة، فَانْطَلَقُوا في تَغْذِيَتِهَا بِٱلْحَطَبِ، فَازْدَادَ آللَّهِيبُ تَصَاعُداً، وأَنَا كَالذَّاهِل، أو المَضْروبِ عَلى رأسِهِ حتَّى كِدْتُ أَسْقُطُ من أَعْلَى ظَهْرِ فَرَسي، لولا إِسْعَافُ أَحَد مُرافِقي بِرشَّات سَرِيعَة من الماء، فنهضتُ متحامِلاً عَلَى نَفْسِي، وكأَنَّنِي عائِدٌ إلى الحياة منَ العالَم الآخَر.

وَأَهْلُ الْهِنْدِ مِن الَّذين يُقَدِّمُونَ أَرْواحهم قُرباناً لمعتقدهم، سواء كانت الوسيلة النّار، أو ماء نَهْر «**الْغَانْج**» المقدَّس الذي قد يغرقُ فيه الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، حَيّاً، تَقَرُّباً إِلَى مَعْبُودِهِ، أو مَيِّتاً بعد إحراقه وذَرِّ رَمَادِهِ فَوْقَ مُوَيْجَاتِه الطِّينية التي مازالت تطلُب الْمَزيد كل وقت وحين.



وتشتهرُ الهِنْدُ بِعاصِمتِهَا «**دهْلي**»، أَعْظَمُ مُدُن الإِسْلام بِالمَشْرق، مدينة العمران الكثير، ذات الأَبْواب العديدة، والمَحَلاَّتِ الكَثِيرة... أَهْلُها أَهْلُ صَلاَحٌ وتَقْوَى وَأَطْلَقُوا عليَّ اسم «بَدْر الدِّين» وَكانوا يُسَمُّونَ بِلاَد المَغْرِب بِـ«**بِلاَدِ عَبْدِ الْمُومِن**».

كانت «الهند» بالنسبة إلَيّ طالِعَ يُمْنٍ، وأَنْسَانِي اهتمامُ سُلْطَانِها بي، ٱلْحُزْنَ ٱلَّذِي اسْتَبَدَّ بِي عِنْدَ فَقْدِي لِبُنَيَّةٍ صَغيرَة لم يَتَعَدَّ عُمْرُها الْعَام. و«دهْلي» مثْوى الصُّلحاء والزُّهَّاد والأولياء، وتَعاقَبَ عليها العديد من السَّلاطين الذين أنشأوا القُصُور والقِلاع، وتفنَّنُوا فِي تَزْيِينِ قاعدَةِ مُلْكِهِم بِالأَثَاثِ ٱلْعَجِيبِ وَالتُّحَفِ ٱلنَّادِرَة المزيَّنَة بِٱلأَحْجَارِ الكَرِيمة والجواهِرِ النَّادِرة من زُمُرُّدٍ وَياقوت ولآلِيءَ فَاخِرَة. ومِمَّا يُحْكَى عَنْ قُصُور أَحَدِ سَلاطِنِها المُتَعَاقِبينَ عَلَى «دهْلِي» قِرْميدُ قصْرِهِ الْمُذَهَّبِ ٱلَّذِي يَشِعُّ عِنْدَ ٱنْعِكَاسِ الشَّمْسِ عَلَيْهِ بِنُورٍ يُعْمِي ٱلأَبْصَارَ.

وَاشْتَغَلْتُ بِالقَضَاء بِهَذِهِ العَاصِمة المبارَكَة، زمناً، ثُمَّ كَلَّفَنِي سُلْطَانُها بالسِّفَارَة لَدَى مِلِكِ الصِّين، بَعْدَ أَنْ عَرَفَ حُبِّي ٱلشَّديد للأسْفار والجولاَن. لاَ أُخفِيكُم سِرّاً، أَنَّني شعرْتُ بِنَوْعٍ من الخَوْف، أو لعله نوعٌ من التردُّدِ، فَبلاد الصِّين قَارةٌ شَاسِعَةٌ لاَ يَعِيشُ فيها إِلاَّ أَهْلُها.

ولكن لاَبُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ، نَفَّذْتُ الأَمْرَ الْمُطَاعَ، وَرَكبْنَا

البَحْرَ فِي اِتِّجَاهِ الصِّين. وابتدأت الرِّحْلَةُ بِتَتَابُعِ ٱلْمَتَاعِب، إِذْ تَعرَّضْنا لهُجومِ **الكُفَّار**، وأُسِرْتُ، ثم أُطْلِق سَرَاحِي، من حسن الحظ، وأخَذْتُ، بَعْد تَرْكِنَا للبَحْر، أَهِيمُ فِي الْبَرَاري، طَاوِياً المسَافَاتِ الطِّوَال في اللَّيل والنَّهار، مُقْتاتاً بِما يَصِلُ إلى يَدي، إلى الحدِّ الذي كُنْتُ أَجْنِي فيه النَّبَقَ مِن أشْجَار السدْر لأُسْكِتَ قَرْقَرَة ٱلْجُوع، ومازالت خُدُوشُ الشَّوْكِ يَحْمِلُهَا سَاعِدِي ٱلأَيْمَن إِلَى ٱلآن !!

ولم يكُنِ الوُصُول إلى الصِّين بالأَمْر السَّهْل، فَدُونَهَا جُزُرٌ وحَواضِر كَثيرة ومداشر وغابات.. والمسافِرُ، عادَةً، لاَ يُبْحِرُ فِي «الصِّين» إلاَّ بمراكِب الصِّين، وهي على ثلاثة أنْوَاع، أَشْرِعَتُهَا مِن قُضْبَانِ **الْخَيْزُران**، منْسُوجَةٌ كالحُصُر، لا يتِمُّ إِنْزَالُهَا أَبَداً فَهِي دائمة الإِلْتِصَاق بالصَّوَارِي، وتُدارُ تبعاً لِاتِّجَاهِ الرِّيح، مثل دَفَّاتِ المراكِب.

وللصِّينيينَ عادَاتٌ قديمة في رُكُوب البِحار، خاصةً أنَّ بحْر الصِّين يَزْدَادُ هَيَجَانُهُ كُلَّ يَوْمٍ بَعْد العَصْر... أَيْنَ كُنَّا ؟! المُهِم... رَكِبْنَا البَحْرَ وَمَرَرْنَا بِجُزُرٍ عِدَّة مِثْل جَزِيرَة «سَيَلاَن» التي طالَعَتْنا بِجَبَلِهَا الشَّهِير «سَرَنْدِيب» الذي ارْتَفَعَ في السَّماء مثل عَمُود الدُّخَانِ وتَشْتَهِرُ هَذِه الجزيرةُ بِأَنْواع اليَاقُوت المُلَوَّن في الكَثِير من صَوَامِعِها التي بدت مُزَرْكَشَةً بالأَلْوَانِ ٱلْحَمراء والصَّفْراء والزَّرْقاء.. فالياقُوتُ زينَةُ نِسَاءِ الجزيرة، يَجْعَلْنَهُ في أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ عِوَضَ ٱلأَسْوِرَةِ وَٱلْخَلاَخِيل، وفي طَرِيقِنا مَرَرْنا بِبِلاَدِ

«الْبَنْغَال»، المزروعَة بجَوَاهِرِ الأُرْز. ودَخلْنَا بِلاَدَ «البِرهنكار» على ساحِل «بُورْما» رِجَالُهَا عَرَايَا لاَ يَسْتَتِرُونَ. أَفْوَاهُهُمْ مِثْلُ أَفْوَاهِ الكِلاَبِ صُوَرُهُمْ آدميةٌ ماعَدَا أفواههم، وهم لا دينَ لَهُم، أَمَّا نِسَاؤُهُم فَعَلَى النَّقِيضِ من ذَلِك، ذَوات جَمالٍ بَارِع، لا تَسْتُرُهُمْ إلاَّ أَوْرَاقُ آلأَشْجَارِ. وَمَرَرْنَا بِـ«جَاوَة» وهي كثيرةُ الأَطَايِيبِ، وإِلَيْها يُنْسَبُ اللّبان «الْجَاوِي» الطيِّبُ الرَّائِحَة، وَدَخلْنَا «سُومَطْرَة»، واضْطَرَرْنَا إِلَى أَخْذِ «جَنْكٍ» رَكِبْنَاهُ مَا يَزِيدُ عَلَى العِشْرِينَ يوماً، فَوَصَلْنَا إِلَى «الصِّين» بعد أن قَضَيْنَا في الطَّريق ما يزيدُ على الشَّهْر.

وَبِلاَدُ آلصِّين كثيرةُ الخَيْراتِ والزِّراعاتِ، فَواكِه من كل نَوع، ذَهَبٌ وفضَّةٌ.. وتشتَهِر الصِّين بِفَخَّارِها الذي تَجِدُه بِكل أَسْواق العالم، وَيَمْتَازُ بِآلرَّهَافَةِ وَالرُّسُوم الْبَدِيعَة التي تَعْكِسُ رُوحَ هذا الشَّعْبِ النَّشِيط. ورَهَافَةُ آلْفَخَّارِ، بِأَنْوَاعِهِ المُخْتَلِفَة، تُضَاهِيها رَهَافَةُ آلْحَرِيرِ المنتَشِرِ في كُل مَكان. فَالثَّوْبُ الواحِدُ من القُطْنِ يُبَاعُ بِأَدْرَاج طَوِيلَةٍ من الحرير... أَلَيْسَتْ هذه هِيَ طريقُ الْحَرير التي اسْتَهْوَت العَدِيد من الرَّحَّالَة والمغامِرينَ ؟!

وَأَغْرَبُ آلْغَرَائِبِ بِهَذِهِ البِلاَد قُدْرَةُ أَهْلِها على نَسْخِ آلصُّوَر الآدَمِيَة أَو الطَّبِيعِيَّةِ، فَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَعُودَ إِلَى مَدِينَةٍ صِينِيَّةٍ دَخلْتَهَا سَابِقاً تُفَاجَأُ بِصُورَتِكَ أَوْ صُورَة أَصْحَابِكَ مَرْسُومَةً عَلَى آلأَوْرَاقِ وَآلْجُدْرَانِ مُوَزَّعَةً فِي آلْمَدَاشِرِ والأسْوَاق. وبِسَبَبِ قُدْرَتِهِم عَلَى تَقْدِيم هَذِهِ آلأَعْمَالِ آلدَّقِيقَةِ، تَعَامَلُوا بالعُمْلاَتِ الوَرَقِيَّة وَهِي قِطَعٌ

منَ الوَرَق في حَجْمِ الكَفِّ، حامِلة لِطَابَع السُّلْطَان وَرُسُومَاتٍ أُخرى. وإذا اهْتَرَأَتْ هَذِهِ ٱلْعُمْلاَتُ أَوْ تَقَادَمَت، يتقدَّمُ بِهَا حامِلُهَا إِلَى دَارِ ٱلسِّكَّةِ، وَيَأْخُذُ عِوَضَهَا عُمْلَةً جَدِيدَةً.

ومِنْ طَرَائِفِ هَذِه البِلاَد دَجَاجُهُم الَّذِي يُقَارِبُ ٱلإِوَزَّ. فَاشْتَرَيْنَا دَجَاجَةً لِطَعَامِ ٱلْغَذَاء وَعِنْدَمَا أَرَدْنَا طَهْيها لَم يَسَعْ حَجْمُها قِدْراً وَاحِدا، فَاضْطَرَرْنَا إِلَى شَطْرِهَا نِصْفَين، وَجَعَلْناهَا في قِدْرَيْن !! الدَّجَاجُ مِثْل الإِوَزِّ، والإِوَزُّ أَصْغَر من الدَّجاج !! وبِسَبَبِ شَسَاعَة هَذا البَلد الغَريبِ، كما أَسْلَفْتُ، لم أتمكّن من زيارَةِ كُلِّ الحَواضر، مُكْتَفِياً ببعضها مثل «الزيتُون» و«صِين كِلاَن» و«الخَنْسَا» و«خَان بَالْقَا».

وَالحديثُ عنِ الصين قدْ لا تَسَعُه هذه الأوْرَاق القَليلة، ولنْ تَنْمَحي من ذاكِرَتي القُدرةُ الخَارِقَةُ لهؤلاء النَّاسِ عِنْدَ خَلْقِهم مِن لاَ شَيْء أَشْيَاءَ عَدِيدَة، بل إِنَّ أَشْيَاء بَسِيطةً من أحْجَار وأَخْشَاب وخِرَقٍ تَتَحَوَّلُ عَلَى أَيْدِيهِمْ إِلَى تُحَفٍ وَصِنَاعَاتٍ يَدَوِيَّة تُبْهِرُكَ بِتَنَاسُقِ أَلْوَانِهَا، وَدِقَّةِ صَنْعَتِها، وَرَهَافَةِ إِحْسَاسِ أَصْحَابِهَا. وَقَبْل هَذَا أو بَعْد ذَاكَ، يُعْرَفُ ٱلصِّينيون بِأَدَبِهِم ٱلْجَمِّ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ تَمُرَّ بِأَحَدِهِمْ يَنْحَنِي لَكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ انْحِنَاءَةً خَفِيفَةً مِنْ رَأْسِهِ، مُبْتَسِمَ ٱلأَسَارِيرِ، مُتَوَاضِعَ ٱلْجَانِبِ، وَبِٱلرَّغْمِ مِنْ مُرُورِ مِحَنٍ عَدِيدَةٍ عَلَى هَذِهِ ٱلْبِلاَدِ، فَٱلإِبْتِسَامَةُ لاَ تُفَارِقُ وُجُوهَهُمْ، وَٱلأَدَبُ لاَ يُغَادِرُ سُلُوكَهُمْ، وَحُبُّ ٱلْجَمَالِ وَٱلتَّنَاسُقِ مَبْدَؤُهُمْ.

وغادرتُ الصِّينَ، بَحْراً، تُرَافِقُنَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ طوال عَشرة أيَّام، وفجأةً تَغَيَّرَ إيقَاعُ الرِّيحِ، واضْطَرَرْنَا إِلَى **الْمُرَاوَحَةِ** في أمَاكِنِنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخر، لاَ نَرَى ٱلشَّمْسَ أَوِ الضِّيَاءَ. ظُلْمَةٌ فِي ظُلْمَةٍ، وَدَخَلْنَا بَحْراً لَمْ أَتَمَكَّنَ من مَعْرِفَةِ اِسْمِهِ، وَانْقَسَمْنَا إِلَى فَرِيقَيْنِ : فَرِيقٌ يُرِيدُ ٱلِاسْتِمْرَارَ، وَفَرِيقٌ آخر يُرِيدُ ٱلرُّجُوعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى، وَكَانَتِ ٱلْكَفَّةُ مَائِلَةً إِلَى ٱلْفَرِيقِ ٱلثَّانِي، غَيْرَ أَنَّ مَجَاهِلَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمَحْفُوفَةِ بِالمَخَاطِرِ مَنَعَتْنَا من الْعَوْدَة.

وَفِي اليَوْم الثَّالِث والأَرْبَعِينَ، بَدَا لَنَا مِنْ بَعِيدٍ جَبَلٌ ضَخْمٌ، بَعْد طُلُوع الفَجْرِ تَقْرِيباً، نَابِعٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ، وَأَخَذَتِ ٱلسَّفِينَةُ تَتَّجِهُ تَحْتَ تَأْثِيرِ سُرْعَةِ ٱلرِّيحِ ٱلْقَوِيَّةِ نَحْوَ هَذَا ٱلْجَبَلِ الْغَرِيب، والْبَحَّارَةُ يَنْظُرُون بِانْدِهَاشٍ وَخَوْفٍ إِلَى هَذَا ٱلْجَبَلِ ٱلضَّخْم. وَنَشَرَ أَحَدُ ٱلْبَحَّارَة خَرِيطَةً جِلْدِيَّةً، وَأَخَذَ يَهُزُّ رَأْسَهُ بِٱلنَّفْيِ ٱلْقَاطِعِ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ :

ــ لاَ يُوجَدُ جَبَلٌ بِهَذا المَكَان ؟!! انْظُر. هَا هِيَ الخَرِيطَة أَمَامَكَ ؟!!

ــ اَلْغَرِيبُ أَنَّ هَذِه الرِّيحِ المَلْعُونَة، تَدْفَعُ بِٱلسَّفِينَةِ نَحْوَ ٱلْجَبَلِ بِسُرْعَةٍ خَارِقَة.

ــ وكَأَنَّ ٱلْجَبَلَ.. يَجْدبُ السَّفِينَةَ بِقُوَّةٍ سِحْرِيَّةٍ لاَ تُقَاوَم !!

وَعَمَّ ٱلصَّمْتُ، وَتَضَاءَلَت المَسَافَة بين الجَبَلِ والسَّفِينَة إِلَى أَنْ قَارَبَتْ ٱلْعِشْرِينَ مِيلاً، وأَخَذَ النَّاسُ في البُكَاءِ والتَّضَرُّع، وجاء

أَحَدُ ٱلرُّكَّابِ واقْتَرَبَ مِنِّي، وهو في حَالَةٍ يُرْثَى لَها من الخَوْف والاِضْطِرَاب، وطَلَب منِّي أَنْ أَكْتُبَ وَصِيَّته ٱلأَخِيرَة، ونَذَرَ رَاكِبٌ آخَرُ صَدَقَاتٍ، إِنْ خَرَجَ سَالِماً. فَكَتَبْتُهَا بِخَطٍّ مُرْتَعِشٍ، وَأَرْفَقْتُهَا بِأَوْرَاقِ هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ.

فَجْأَةً أَخَذَتِ ٱلرِّيحُ تَهْدَأُ تَدْرِيجِياً، واتّضَحَت لَنَا ٱلصُّورةُ أَكْثَرَ مِنَ ٱلسَّابِقِ، وَرَأَيْنَا بِأُمِّ أَعْيُنِنَا، عِنْدَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ، ٱلْجَبَلَ ٱلضَّخْمَ يَرْتَفِعُ بِبُطْءٍ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَانْقَشَعَ ٱلضِّيَاءُ فِي ٱلأُفُقِ، بَيْنَ سَطْحِ البَحْرِ وسَفْحِ ٱلْجَبَلِ الْمُمْعِنِ فِي ٱلإِرْتِفَاعِ !! وَسَمِعْتُ نَشِيجاً مَكْتُوماً صَادِراً عَنْ بَعْضِ ٱلبَحَّار الَّذِينَ أَخَذَ بَعضهم يُعَانِقُ ٱلْبَعْضَ بِعُيُونٍ دَامِعَة، وَلَما سألتُ عن ذلك، أَجَابَنِي أَحَدُهُم بأَنَّ ٱلْجَبَلَ ٱلْمُتَحَرِّكَ مَا هُوَ إِلاَّ طَائِر الرُّخِّ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَرَانَا هلكْنا، وبينَنَا وبينَهُ عَشْرة أَمْيال أو أقل ! ولكن الله لاَ يَنْسَى عِبَادَه، فَقد منَّ علينا بتلك الرِّيحِ الطيِّبَة الَّتِي أَبْعَدَتْنَا عَنْهُ، فَلَمْ أَسْتَطِع رُؤْيَتَهُ عَنْ قُرْبٍ. فَٱلْفُضُولُ ـــ كَمَا تَعْلَمون ـــ خُبْزُ ٱلرَّحَالَة، لِذَلِكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَنْ صُورتِه الحقيقية لعَجَزْتُ عن الإِجَابَة، فأنا لا أَعْرِف من طَائِر الرُّخِّ سوى هَيْكَلِهِ ٱلضَّخْم الذي يُضَاهِي ٱلْجِبَالَ. وهُنَاك من رآهُ من رحّالاَتِ ٱلإِسْلاَم، أو تخَيَّله عَلَى هَيْئَةٍ مَعْلُومَة.

كانت «الصِّينُ» أقْصَى نُقْطَةٍ وَصَلْتُ إِلَيْهَا، وَكُنْتُ أَوَّل رَحَّالَةٍ مُسْلِمٍ مَشَى فَوْق هَذِهِ ٱلأَرْضِ ذَات الأَسْرَار التي لا عَدَّ لها ولا حَصْر. أَلَم يَقُل الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلاَمُ : «أُطْلبوا العِلْم ولو فِي

ٱلصِّين». ولكن، كان لابُدَّ من الرُّجوع، فالرحَّالة لا يستحِقُّ حَمْل هذه الصِّفة، إلاَّ إذا نقَشَ في ذِهْنِهِ فِكْرَةَ ٱلْعَوْدَة.. الْعَوْدَة، إِلَى مَوْطِن الأَهْلِ أو العَشِيرَة، فإذا ذَهَبَ دُونَ رِجْعَةٍ، مَاعَدا إذا كانت الرحلةُ إلى البَيْت الحَرَام، فهو قد يكون مُهاجِراً أو مغْتَرِباً ولَن يكون رَحَّالة. وَيَكون بِذَلِكَ قد نَفَى نَفْسَه عن بَلده، ونَفى بَلَدَهُ عَنْ نَفْسِه.. أما الرحّالة فعليه أن يعود.. لابُدَّ أن يَعود بأي شكْل من الأشكال...

الرحّالة يخْرُجُ من مكانٍ مَا، والأعْمَار بِيَد اللَّه.. ولكن لابُدَّ من الرجوع، طال الزمن أو قَصُر، فللنَّاس دَيْنٌ في عُنق الرحّالة هو دين الحكي.. الرحالة عليه أَن يَعُود ليَحْكي.. وإلا انتفَت عَنه صِفَة الرحَّالة.. مَلاَيين النَّاس ارْتَحَلُوا دون أن يحكُوا، ولكنَّهُم لم يحْمِلُوا هذه الصِّفَة، صفَة الرحَّالة، التي تَتكَوَّنُ بالعَرَق والجَهْدِ والمُغَامَرة المُثِيرة.. عَلَيه أن يَعُود ليَحْكي..

حَزَمت متاعي، ورتَّبتُ الهَدَايا في أمكنة أمينَة، وأخذتُ طَرِيقَ الذَّهَاب الذي مررتُ به سَابِقاً. كنتُ أحياناً أمرُّ بما مَررتُ بِه من حَوَاضِر، ولكِنَّني كنْتُ أُعَرِّجُ عَلَى أَمَاكِن أُخْرى سمعتُ عَنْهَا، فَتَتَيَقَّظُ، مِنْ جَدِيدٍ، شَهِيَّتِي للسَّفَر، خَاصَّةً إذا سمح الوقت بذلك، كما حدث لي في إحدى سفَرَاتي «وكان قد بَقِي لأَوَان سَفَر الرَّكْبِ **أَزْيَدَ من شَهْرَيْن،** فظَهَر لي أن أُسَافِرَ إِلَى **الْمَوْصِل ودِيَارِ بَكْرٍ** لأُشَاهِدَ تِلْكَ ٱلْبِلاَدِ وأُعُودَ إِلَى بَغْدَاد...».

مَرَرْتُ، من جديدٍ، بـ«جَاوَة» ثُمَّ ٱلْبَصْرَة في مَرْحَلَةٍ لاَحِقَة، وَتَتَالَت الحَواضِر الشهَيرَة : «دمشق»، «الكوفة»، «بغداد»، «تَدْمُر»... وبـ«دمشق» كُنْتُ قد تَرَكْتُ زَوجَةً لِي حَامِلاً، بعد أن غِبْتُ عَنْها عِشْرِين سَنَة كامِلة. وقد أُبْلَغَنِي آخِرُ من رَآهَا بِأَنَّهَا قد وَلَدَت لِي ذَكَراً، بَحَثْتُ عَنْهُ فِي كُلِّ ٱلأَمَاكِنِ، إِلَى أَنْ أُخْبِرْتُ بِوَفَاتِه مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَى ٱلْعَقْد. وَيَعْلَمُ ٱللَّه فِي أَيِّ مكانٍ كُنْتُ آنَذَاكَ.

من فاس إلى غرناطة

ها هو طريق العودة يبدأ بما كنتُ أخَافُه. فَغيابي مُدَّة ثلاثينَ سنة، أو يزيد قليلاً أو كثيراً، تَفْنى فيه الأمم والدُّول، فكيف بالكائن الضعيف ؟! الأعمار بيد الله، وما علي إلاَّ التجلُّد والصَّبْر، فَمَا هُو آتٍ لا يَعْلَمُهُ إلا الله.. وسألتُ أَحَدَ فُقَهَاء مَدَارِسِ «دمشق» ـــ المَدْرسة الظَّاهرية ـــ عن الوالدين، فأَخْبَرَني، وهو شيخٌ كبير، بوفَاةِ الوالد منذ خمس عشرة سنة، أما الوالدةُ فمازَالَت على قَيْد الحياة بِـ«طَنْجَة العالية» حَرَسَها الله من كل مَكْرُوه.

ومَرَرْتُ بِحَواضِر الشَّام الأخْرَى التي انْتَشَر بها الوباء، وعمَّ الديار حتَّى وصل «دمَشْق» فَبلغَ عددُ ضَحاياه ألفين وأربعمائة في اليوم الواحد.

وَخففَّ اللَّه من هذا القضاء، بأن رَفَع الْبَلاَء بِـ«بَيْتِ ٱلْمَقْدس»، لكنَّهُ عادَ إلى الظُّهُور الملعون بالقاهرة، التي تُوفِّي فيها الكثير من مشايخي، وبلغ عدد ضحاياه أكثر من عشرين ألفا في اليوم الواحد. ولله الأمر من قَبْلُ ومنْ بَعْد.

وعندما مَررتُ بـ«الحجاز»، أَغْرَتْني البِقَاع المقدَّسَةُ بالإقامة

هُناك، غير أنني اكتفَيْتُ بِالمناسِك، وتابعتُ طريقي، بَحْراً، في صفَر سنة خمسين وسبعمائة (750هـ)، وأقلّتْني أحَدُ المراكِبِ التُّونُسية الصَّغيرة الحَجْم إلى «جَرْبَة»، و«تُونس» — وهي من إيَالَة المَغْرِب يَوْمَذَاك —، ورَافَقْتُ مجموعَةً من «القَطَلاَنِيِّين» إلى سَرْدينيا، وَوَصَلْنَا، بَعْدَ ذَلِك إلى «مُسْتَغَانم» فـ«تِلِمْسان»، وزُرْتُ رَأسَ الصُّوفية هناك الشَّيْخُ «أَبَا مدين» وحَطَطْنَا الرِّحَالَ، أَخيراً بـ«تَازَة» حيثُ عَلِمْتُ هناك بِوَفَاة أَبِي بِالْوَبَاء رَحِمَهُ ٱللّه تَعَالَى.

ولم أسْتَطِع صَبْراً، وأنا بمدينة «تازة» عن زيارَة حَاضِرة المغْرِب «فَاس»، وكَذِلك كَان، ٱنْتَقَلْتُ إلى الْحَاضِرَة يَومَ الجُمُعَةِ أواخِر شَهْرِ شَعْبَان المكَرَّم من العام ذَاتِه (750هـ)، وَمَثَلتُ أَمَامَ سُلْطَانِ المغْرِب «أبي عِنَان المَرِيني»، وسألَني الكثير في هذا المَجْلس، ومجالس أخرى، بعد أن حَمِدُوا اللّهَ عَلى سلامَتي، عن هذه الرحلة، فَحَكيتُ لَهُم بَعْضَ مَا شَاهَدْتُ فَانْدَهَشُوا لذلك، وتمنّوا كِتَابة الرِّحلةِ حَتَّى تَنْتَفِعَ بِها الأَجْيَالُ اللاَّحِقَة. وأَمْهَلْتُهُم أَيَاماً أَسْتَجْمِعُ فِيهَا أَنْفاسِي، وَأُرَتِّبَ أَوْرَاقِي، بَعْدَ أَنْ ضَاعَ ٱلْكَثِيرُ مِنْها بَحْراً أَوْ بَرّاً. وكُنتُ في هذه اللّحظة أَتَأَمَّلُ من شرْفَةِ بَيْتِي بـ«فاس» الزَّاهِية، ولسانِي يقُول عن الغَرْبِ وجَماله :

الغـــربُ أحسن أرضٍ	ولي دليـــلٌ عَلَيْـــهِ
الْبَــدْرُ يــرقبُ منْـــهُ	والشَّمس تَسْعَى إليـهِ

وأثناءَ حُضُوري بـ«فَاس» كانت «طَنْجَةُ» تَحْضُر بين الفِينَةِ وَٱلأُخْرَى، فَلِكل مِنَّا مَدِينَتُهُ، وهي تَتَقَمَّصُ كُلَّ الْمُدُنِ في اليَقَظَةِ

والمَنَام. وكان عَلَيَّ أَنْ أَزُورَ قَبْر الْوَالِدَة رَحِمَها الله بـ«طَنْجَة» مَلاَعِب الصِّبا، وَمَثْوَى العُنْفُوان وبِدَايَةِ الْوَعْيِ. وبمُجرَّد أنْ زُرْتُ قَبْرَ الْوَالدة، تَسَرَّبَتْ إلى أَنْفِي رَائِحَةُ ٱلْبَحْرِ.. حَقّاً إن رائحَةَ بَحْرِ «طَنْجَة» لاَ تُشْبِهُ رَوَائح «بَحْرِ ٱلْهِنْد» أو «الصّين». ما بَحْرُ «طَنْجَةَ» كَالْبُحُورِ !! وأحْسَسْتُ ـــ وَأَنَا أَتَجَاوَزُ ٱلْخَمْسِينَ ـــ بأَنَّنِي أَصْبَحْتُ ذَلِكَ ٱلْفَتَى ٱلْيَافِعَ ٱلَّذِي لم يَبْلُغ الْعِشْرِينَ بَعْد !! فَرَائِحَةُ الْبَحْرِ تُنْعِشُ المَوْتَى فكَيْفَ بِالأَحْيَاء ؟!

وَمَعَ آذَانِ ٱلْفَجْرِ، نَهَضْتُ مِنْ نَوْمِي خَفِيفَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجَسَدِ. تَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ، ثُم تَوَجَّهْتُ إلى «سَبْتَة» وأقَمْتُ هُنَاكَ شَهْراً كَامِلاً. وعندما كُنْتُ أَحْزِمُ مَتَاعِي لمُغَادَرَة المَكَان أُصِبْتُ بِمَرَضٍ مُفَاجِىءٍ أَقْعَدَنِي ثَلاَثَةَ أَشْهُرٍ، وقَرَّرْتُ أَنْ أُنْذِرَ نَفْسِي لِلْجِهَادِ فِي أَيِّ مَكَان، شُكْراً لِلَّهِ ٱلَّذِي مَنَّ عَلَيَّ بِٱلشِّفَاءِ. هَا هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ جَدِيدٍ، وهُو أَشْبَهُ بِحضْنِ أمّ، وَرَاكِبُهُ يَجِبُ أَنْ يُرْهِفَ إلَيْهِ السَّمْع جَيِّداً، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بأَلْسِنَةٍ عَدِيدَة، وَالرَّاكِبُ النَّبيهُ هو الذي يُمَيِّزُ الصَّوْتَ الحَقيقي من الصَّوْت المُزَيَّفِ.

وَصلتُ الأَنْدَلُسَ ـــ أَعَادَهَا ٱللَّه إِلَى دَارِ ٱلإِسْلاَمِ ـــ وَأَخَذْتُ أُجِيلُ ٱلْبَصَرَ فِي مَا تَرَكَهُ طُغَاةُ الرُّوم من أَشْلاَء الممالِك والدّيار !! وبالرَّغْم من مَوْتِ طاغية الرُّوم «أَذْفُونْس» الذي حَاصَرَ «**جبل الفَتْح**» عَشْرَةَ أَشْهُر، دون أن يُحقّق هَدَفَهُ الخَبيث بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بالوَبَاء القَاتِل، بالرَّغْم من ذلك، كان الوَبَاء الحقيقي هم هَؤُلاَء النَّصَارَى الذين كانوا سَادِرِين في مُهَاجَمة مَا تَبَقَّى من حُصُون

تَنَاثَرت، أمام أبْرَاجِهَا، جُثَثُ ٱلإِنْسَانِ والْحَيَوَان. مَازالت صُورة أكوام الذُّباب المُلْتَهِمَة لعَيْنَي الفَرَسِ المفْتوحَتين عن آخِرِهِما لَمْ تُغَادِرنِي بيْن اللحظة والأخرى. وتلك القُفَّةُ المبقُورة، وبجانبها سمكات صغيرة تناثرت بدون انتِظَام... لَعَلَّهُ صَيْدُ صَيَّادٍ مِسْكِين مَنَعَتْهُ هَجْمَةُ ٱلْمَسِيحِيِّين من تقديمه لأطفاله الصّغار !!..

واسْتَطَاعت «مَالْقَة» أَنْ تَمْسَح عن أَعْيُنِنَا المَظَاهِرَ المؤْلِمَة السَّابِقة بجَمَالِها المُنْتَشِر في البَحْر والبر. مَدِينةٌ كَثِيرة الفواكِه، رَخْصةُ ٱلأَثْمَان، صِنَاعَتُها الشَّهِيرَةُ ٱلْفَخَّارُ ٱلْمُذَهَّب.

وكانت «غَرْنَاطَةُ» عَاصِمَة الأَنْدَلُس المحَطَّةَ المُوَالِية، عَرُوس البُلدان، وأَيْنَما وَلَّيْتَ وَجْهَكَ، وقد ذكَّرتْني بِغَوْطَةِ دِمْشَق الفَيْحَاء، لَنْ تَجِدَ إلاَّ الكُروم الدَّانِيَة، والقُصُور العَالِية، والبَسَاتِينَ الَّتي ضَمّت من كُل فَنٍّ طَرف !! وكانت «غرناطة» يوْمَذَاك تَحْت سُلْطة الإسْلاَم، فَازْدَانَتْ بِكَثْرَةِ ٱلْعُلَمَاء والفُضَلاء والأُدَبَاء، وَزُرْتُ زَاوِيَةَ «رَابِطَةِ ٱلْعُقَابِ»...

ثُمَّ عُدْتُ قَافِلاً نَحْوَ **«جَبَل الفَتْح»**، ودخَلْتُ الوَطَن عن طريق «سَبْتة»، لأَنْتَقِلَ بَعْد ذلك، إلى «أَصِيلاَ»، ومنها إلى «سَلاَ»، فَـ«مُرَاكُش» التي صَعَدْتُ صَوْمَعَتَهَا الشَّهِيرَة «الكُتُبِيَّة» فَامْتَلَكْتُ البِلاَدَ بِنَظْرة متأَمِّلَة من أَعْلَى هَذِه المأثرة الْعَالِية كما امْتَلَكْتُ البَحْر عند صُعُودي لِمَنَارِ «الإِسْكَنْدرية».

ورَجَعْتُ إلى «سَلا» ثُمَّ «مَكْناس» بِأَشْجَار زَيْتُونِها الشَّهِير،

وَوَصَلْنا إلى الحَاضِرَة «فَاس» المحروسة من كل بَأْس، تَذَكَّرُوا أَنَّ آلرَّحَّالة لاَ يَمُوتُ إلاَّ عِنْدَمَا يُقَرِّرُ اعْتِزَال السَّفَر وَالإعْتِزَالُ، بالنِّسْبَة إليه هُو الموت، الرحّالة لا يَحْيا إلا بِواسطَة السَّفَر، وهذا ما حَدَث... فبمُجَرَّدِ أن ودَّعْتُ الرَّكْبَ الشَّريف بـ«فَاس» واتجَهْتُ نحْوَ بَيْتِي بِوَسَطِ الحَاضِرَة المَحْرُوسَة، أَخَذَت تَنْثَالُ على ذَهْني الخَوَاطِر المُخْتَلفة والأفْكَار المتعدِّدة. هذه تَجُرُّنِي إلى تلْك... وَهَمَسْتُ لنَفْسي : ماذا بقي أمامك الآن ؟ واقتربْتُ من سفح جبل «زلاغ»، ووقَفْتُ مُسْتَشْرِفاً جِهَةَ آلْجنُوب، كُل الحضارات والدول المتعَاقِبة صَعِدت من عمق الصَّحْراء..! إذذاك قررتُ أن أعيد صِلَةَ الرَّحِم بِمَوْطِن الآبَاء والأجداد، ومن حُسْن حَظِّي مَازَالَ الرَّحْل لَمْ يُغَادِر الرَّاحِلَة.

بلاد السودان

جَذَبْتُ ٱللِّجَامَ، وَيَمَّمْتُ وَجْهِي نَحْوَ ٱلطَّرِيقِ ٱلثَّالِثِ، طَرِيقِ «ٱلسُّودَانِ» أو طَريق المِلْح والذَّهَب... وابْتَسَمْتُ للخَواطِرِ التي لَمْ تُفَارِقْنِي فِي هَذه اللَّحْظَة بالذَّات، فَبَعْدَ أَنْ انْتَشَيْتُ بِطَرِيق التَّوابلِ أو البَهَارَات اللَّذِيذة، وَتَسَرْبَلْتُ بِطَريق الْحَرِير، ها أَنا الآن أَخْتَرِقُ مَجَاهِلَ جَدِيدَة، سَمِعْتُ عَنْهَا الكَثِير...

وصلْتُ «سِجِلْمَاسَّة»، وهي ذَات عَرَاقَة في المَاضِي، ومازالت آثَار الحَضَارات الذَّاهبة واضِحَة إلى الآن، وهي تُشْبِهُ ٱلْبَصْرَة، كثيرة التمر، غَيْر أَنَّ تَمْر «سِجِلْمَاسَّة» أَحْلَى وَأَطْيَب بالرَّغم من مَائِهَا الزُّعَافِ، وكَثْرَة الذُّبَابِ. وَرَحَلْنَا، بعد عِشْرين يوماً، إِلَى «تَغَازَى» قَرِيَةٌ لاَ زَرْع فِيها وَلاَ حَيَاة، ولكنَّها مُلْتَقَى لِلْقَوَافِل الحَامِلَة لِقَناطِير التِّبْر، وَأَكْيَاس التَّمر، وأُطْنَان لحُوم دَرعة، ومن أَغْرَب غَرَائِبِهَا شَكْلُ جُدْرَانِ بُيوتِهَا وَمَسَاجِدِهَا المصنُوعَة من المِلْح. وَسُقُوفُها من جُلود الجِمَال. والمِلْحُ تَمْتَلِىءُ بِهِ بَاطِنُ ٱلأَرْض، بَعْدَ أَنْ يِتِمَّ استِخْرَاجُهُ عَلَى هَيْئَةِ أَلْوَاحٍ ضِخَامٍ تَكُونُ مُتَرَاصَّة بَعْضُها فَوْق بَعْض، وَكَأَنَّهَا صُنِعَتْ بِأَيْدِي خَبِيرَة. وَتَحْمِل الجِمَالُ هَذِه الأَلْوَاحَ إلى «السُّودَان».

والْغَرِيبُ أَنَّ المِلْح فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدةٍ مع الذَّهبِ، فهو العُمْلَةُ السَّائدةُ عنْد أَهَالي السُّودَان وَمَا يُجَاوِرُه، ويُتعامَلُ بِهِ كَمَا يُتعَامَل معَ الذَّهَب والفضَّة، وَيُقْطَع إِلَى قِطَعٍ مُتَسَاوِيَةٍ تُعَادِلُ قَدْراً مَعْلُوماً مِن الذَّهَب أَوِ الفِضَّة، ويُعتَبَرُ مَالِكُ المِلْح من أَكْبَر الأغنياء إذ يُبَاعُ الجَمَلُ مِنْه بِـ«مَالِي» بثَلاَثين مِثْقَالاً، بل قَد يَصِلُ إلى الأَرْبَعِين مِثْقالا. والْمُسَافِرُ بِهذه البِلاَدِ لاَ يضْطرُّ إِلَى حَمْل مالٍ أو نُقُودٍ، بَلْ يَكْتَفِي بحَمْل قِطعِ الْمِلْحِ.

وَتَوَغَّلْنَا فِي عُمْق الصَّحراء الشاسِعَة. نَتَرَجَّلُ، بَين اللَّحْظةِ والأُخْرَى، كلَّمَا شَعُرنَا بالتَّعبِ أَوِ الْجُوع بِوَاحَات أو مَرَاعٍ مَحْدُودة، تَخْتَرِقُهَا قُطْعَانُ ٱلْبَقَر الوَحْشِي، أو نسائم جَافَّة حَمَلت رَائِحة نَبَاتاتٍ صَحْرَاوِيَّة مُنْعِشَة، وَإِذَا كَان المَثل يَقُول : «الأَعْمَش في بِلاَد العُمْيَانِ مُبْصِر» فإن دليلَنا فِي هذه الطَّريق كان أَعْوَرَ إِحْدَى ٱلْعَيْنَيْن، أَمَّا الثَّانِيَة فَلَمْ تَسْلَم منَ المَرَض.. ولَكِنَّنِي أَشْهَدُ بِأَنَّ بَصِيرَتَهُ كَانَت تَقُودُه قَبْل بَصَرَه، وَكَانَ أَدْرَى بِمَجاهِل الطَّرِيق، وَأَخذَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَة تَتَصَاعَدُ، فَاشْتَدَّ عَلَيَّ الْعَطَش، وطَلَبْتُ مَاءً منَ الدَّليل، فَابْتَسَمَ بِأَدَبٍ، وَأَشَارَ إِلَى خِيَامٍ قَرِيبَة عَلَى مَرْمَى النَّظَر، وَهُوَ يُرَدِّدُ بارْتِيَاحٍ : هَا هِيَ **«مَسُوفَة»**.. وتَقَدَّم الدَّلِيلُ من جَمَاعةٍ تَحَلَّقَتْ حَوْل بَقَرةٍ وَحْشِيَّةٍ مَسْلُوخَة، وَرَأَيْتُ أَحَدَهُم يَبْقُرُ بَطْنَها، وَيَسْتَخْرِجُ كَرْشَها ثُمَّ يَعْصُرُها فَسَال مِنْها المَاء، وانتقلت الكَرْشُ مِن يَدٍ إلى يَدٍ ومن فَمٍ إلى فَم إلى أَنْ وَصَلت إِلَيَّ، فَفَعلت مِثْل ما فَعَلُوا... وَتَذَكَّرْتُ يَوْم أَنْ وَقَعْتُ

بِٱلأَسْرِ في إحدى رحلاتي، ومُنِعْتُ من الأَكْل والماء، والْبِئْرُ الَّتِي كَانَت بِجَانِبِي لاَ حَبْلَ لَهَا وَلاَ دَلْو، فَرَبَطْتُ خِرْقَةً كَانَت على رَأْسِي بِٱلْحَبْلِ وَحَاوَلْت مَصَّ مَا عَلِقَ بها مِنْ مَاءِ.. وَلَمَّا ضَاعَت ٱلْخِرْقَةُ، رَبَطْتُ خُفِّي بِٱلْحَبْل، واسْتَقَيْتُ بِهِ فَلَمْ يَرْوِ عَطَشِي، وَاسْتَقَيْتُ بِهِ ثَانِيَةً فَانْقَطَع الحبلُ ووقَع الْخُفُّ فِي البِئْر... تَذَكَّرْتُ كُلَّ ذَلِك.. وَحَمِدْتُ ٱللَّهَ عَلَى مَا مَنَحَنَا من عَقْل يُتِيحُ لنا التَّصَرُّفَ في المَآزِق الْغَرِيبَة.

وكانتِ الصَّحْرَاءُ تَتَنَاسَلُ فِي ٱلصَّحْراء الْمُوالِيَة، وَأَخَذَتْ دَرَجةُ ٱلْحَرَارَةِ تَرْتَفِعُ، وَنَحْنُ مَازِلْنَا نَتَوَغَّلُ، مَا يَقْرُبُ من الشَّهْرَين الكَامِلَين مُنْذُ خُرُوجِنَا من «سِجِلْمَاسَّة». هَا نَحْن قَدْ دَخَلْنَا إِقْلِيم «السُّودَان» الشَّاسِع الأَطْرَافِ، وَبَدَتْ مَعَالِمُ «**إيوَالاَتن**» من بَعِيدٍ.

و«إيوالاتن» بلدةٌ شديدةُ الْحَرِّ، قَليلةُ النَّخْلِ الَّذي يُزْرَعُ في ظِلاَلِهِ البَطِّيخُ، والمَاء تُوَفِّرُهُ **احساءٌ** عَدِيدة، وجَمَالُ نِسَائِهَا لاَ يُوصَفُ، وَهُنَّ سَافِراتٌ بِأَدَبٍ، ولَهُنَّ سُلْطَة أَكْبَرُ من سُلطَة الرِّجال.

وبين «إيوَالاَتن» و«**مَالِي**» مسيرة أربعة وعشرين يوماً إذا كان السَّيْرُ **حَثِيثاً**، وامْتَدَّت أَمَامَنَا، عَلى طول الطَّرِيق أَشْجَار ضَخْمَةٌ، تَسْتَظِلُّ بِهَا ٱلْقَوَافِلُ، ويُطْلِقُون عَلَى هَذَا الشَّجَرِ اسْم «الْبَاوْبَابْ» الَّذي يَتَجَمَّعُ بِدَاخِلِه الماء، وبالرغم من **اسْتِئْسَانِه**، لاَ يَتَرَدَّدُ النَّاسُ

فِي شُرْبِه، وَتُنْبِتُ هَذه الأشْجَار نَبَاتَاتٌ طَوِيلَة، أَشْبَه بِالقُثَّاءِ المُحْتَوِي عَلَى ذَرَّاتٍ بَيْضَاء أَشْبَه بالدَّقِيق يأْكُلُه الأَهَالِي، وَيُبَاعُ فِي ٱلأَسْوَاق.

ولَكن أَشْهَرَ نَبَاتٍ بالسُّودان الْقَرْع الضَّخْم، ومنه تُصْنَعُ ٱلْجَفْنَاتُ عِنْدَ شَطْرِه إِلَى شَطْرَين، ولا يتردَّدُ السُّكَّان في تَزْيين هذه الأَنْصاف المتَسَاوية بِالنُّقُوش الْجَمِيلَة، وكُل مَوَاعِينِ السُّكَّان فِي هَذَا ٱلْمَكَان مِنْ هَذَا ٱلْقَرْع.

وَصَادَفْنَا، مِنْ جَدِيدٍ نَهْر النِّيل الأَعْظَم، وتابَعنَا انْحِدَارَهُ نَحْوَ «تُنْبُوكْتُو»، وَمَا تَلاَهَا منَ ٱلْحَوَاضِرِ الخَاضِعَة لسُلْطان مالي. وانْحَدَرَ النَّهْرُ إلى بِلاَدِ «النُّوبَة»، وهم، يَومَذَاك مازالوا على نَصْرَانِيتهم... وَرَأَيْتُ قَوَارِبَ عَدِيدَة مَقْلُوبَة عَلَى طُولِ الضِّفَّة الطِّينية للنَّهْر، وكُلُّ قَارِبٍ يَمْتَلِكُ عَيْنَيْن ٱثْنَيْن على الْجَانِبَيْن، تَتَقَاطَرُ مِنْهُمَا قَطَرَاتٌ من الماء. وَلَمَّا سَأَلْتُ عَنِ ٱلسَّبَب، ابْتَسَمَ دَلِيلُنَا وَقَالَ : إِنَّهَا ٱلتَّمَاسِيح... وكنتُ قد سَمِعْتُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ بِهَذَا الإِسْم الْغَرِيب، وَفَهِمْتُ إِذْ ذَاكَ مَعْنَى دُمُوع التَّمَاسِيح الكَاذِبَة، وبالنِّيل أيضاً رأيتُ دَوَّاب ضَخْمَة أَحْصَيْتُها، فِي أَحَدِ ٱلْخِلْجَان، فكانت ست عَشرة دَابَّة ضَخْمَة، رُؤُوسُهَا كَرُؤُوسِ ٱلْخَيْل، وَأَرْجُلهَا كَأَرْجُلِ ٱلْفِيلَة، وَيُطْلَقُ عَلَيْهَا خَيْلُ ٱلْبَحْرِ !! ووصَلتُ إلى مَدِينَة «مَالِي» حاضِرَة مملكةِ «السُّودَان» وقَضَيْتُ بِهَا «رَمَضَانَ» المُعظَّم إِلَى نِهايتِه. وفي يوم العيد خَرَجَ ٱلنَّاسُ لأَدَاءِ ٱلصَّلاَةِ

بِأَجْمَلِ مَلاَبِسِهِم، وَبَعْدَ الاِنْتِهَاء ابتدَأَ الإِحْتِفَال بِالرَّقْص، وَتَبَارِي الْمُقَاتِلِينَ بالسُّيُوفِ اللاَّمِعَةِ، وَاللَّعبِ بِالرِّمَاحِ بِخِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ، وَيَأْمُر السُّلْطَانُ بالهَدَايا، فيُؤْتَى إِلَيْهِ بِصُرَّةٍ تَحْتَوِي على مِائتي مِثْقَالٍ منَ ٱلتِّبْر، وَيَبْدأُ فِي نَثْرِهِ عَلى الرُّؤُوسِ، أَمَّا الشُّعَراء فَيُرَدِّدُون الأَشْعَارَ، وَهُمْ مُقَنَّعُونَ بِأَقْنِعةِ ٱلطُّيُورِ أَوْ غَيْرِهَا... كَرْنَفَالٌ زَاهِي ٱلأَلْوَانِ، مُتَنَوِّع الأَلْعَابِ، مُتَعَدِّد ٱلرَّقَصَات وَالأَهَازِيج.

وَسَافَرْنَا إِلَى مَدِينَة «تُنْبُكْتُو» وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلنِّيل أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ، وَأَكْثَرُ سُكَّانِهَا يُنْسَبُونَ إِلَى «مَسوفَة»، وهم مُلَثَّمُونَ، وَمَرَرْنَا بِمُدُنٍ أُخْرَى عَلَى ضِفَّة النِّيل مِثْل «كَوْكَوْ»، وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ مُدُنِ «السُّودَان» ثم «تَكَدَّا»... وَوَصَلْنَا أَخِيراً إِلَى «بَرْدَامَة»، وهي من القَبَائل البَرْبرية التي تَحْمِي قَوافِل التِّجارة، والرحّالة على اختلاف أَجْنَاسِهِم بِهَذِه الأَمَاكن الوعْرَة، وعند هذه المحطَّة يَتَفَرَّعُ طَرِيقان : أَحدُهُما يتَّجِهُ نَحْوَ «مِصر»، والآخر يَتَّجِهُ نَحْو «تُوَات».. وَبَعْد مَسِيرة عَشْرة أَيَّام، وَصَلْنَا إِلَى بِلاَد «هَكَّار»، وَهُم طائفةٌ من البَربر ملثَّمون ويَمْتازُون بالْجَفَاءِ والْغِلْظَة، وبِلاَدُهُم كَثِيرَةُ ٱلْحِجَارة، شَحِيحَةُ ٱلنَّبات !!

وحملتنا قَافِلَةٌ مَرَّتْ بِٱلطَّرِيقِ نَحْوَ مَدِينَةِ «سِجلْمَاسَّة»، وَبَعْدَ استِرَاحَة قَصِيرة، خَرَجْنَا مِنْها فِي ثَانِي ذِي ٱلْحِجَّة فِي فترة الْبَرْد الشَّديد المصْحُوب بِأَمْطَار مُتَهَاطِلَةٍ وَبَرَدٍ مُتَنَاثِرٍ طَوَالَ الطَّرِيق، وَذَكَّرني ذلك بِثَلْجِ «بُخَارَى» وَ«سَمَرْقَنْد» وخُراسان وبلاد الأَتْرَاك، ولكنِّي لم أرَ أَصْعَب من هَذه الطَّرِيق. وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ أَكْبَر

قُرَى «تْوَات» المُسَمَّاة «بُودَا»، وهي قريةٌ لاَ زَرْعَ فِيها، وإنما أَكْلُ أَهْلِها من التَّمْر والْجَرَاد الذي ينْتَشِرُ بِهَذِهِ الأَمَاكِن، وَيَخْتَزِنُونَهُ كما يَخْتَزِنُونَ التَّمر. وَتُنَظَّمُ حَمَلاَتُ صَيْدِهِ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْس فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِيهِ عَاجِزاً عَنِ ٱلطَّيَران بِسَبَبِ البَرْد الشَّدِيد.

وَكُنْتُ آنذاك أَجِدُّ السَّيْر. فَهَاهِيَ «فَاس» تَبْدُو منْ بَعِيد شَامِخَةً بِجَبَلِهَا الشَّهِير، وَأَصْوَاتُ المُؤَذِّنِينَ تَرْتَفِعُ مِنْ صَوَامِعِهَا ٱلْخَالِدَةِ.



ما بعد الرحلة

أَنَــا

أنا «ابْنُ بَطُّوطة»، غَادَرتُ المكانَ دون أَنْ أُغَادِر الزمان، أنا رَحَّالة كُلِّ العُصُور، أُحِسُّ الآن ببُرُودَةٍ تَجْتَاحُ جَوَانِحِي في هذه المكتبة العَامِرة... لعلَّهَا تُوجَد في قارة جديدة أطلقوا عليها [أمريكا] أو... لا أشعر بالغربة بالرغم من ذلك... أصدقائي لا عَدَّ لَهم ولا حَصر، من الأَمْوَات والأَحْيَاء.. وفي كُلِّ المَكْتَبَات.. حَتَّى تِلك الَّتِي تَمْتَلِئُ بالغُبَار.. لاَ يَأْسَ مَعَ الِارْتِحَال.. سَيَأْتِي، يَوْماً مَا، من ينفُض الغُبار ليكشف الحقيقة... نعم.. يَنْتَابُنِي نَوْعٌ من المللِ أحياناً ولكن... أمر طبِيعِي أَنْ أَشْعُر بذلك.. تذكَّروا ما حكَيْتُه في الرِّحْلة، الرحَّالة يموت عندما يرفع يديه مستَسْلِماً مُعْلِناً عن عجْزِه أو عَدم رغبته في الارتحال... «انتهت الطَّريق وابتدأَتِ الرِّحْلة»... رجعت من طريق الذهب والحرير والتوابل، وبدأَتْ طَرِيقُ ٱلْكِتَابة.. هَا أَنَا ٱلآن أَحْكِي الحِكَايَة بلُغَات عديدة، وأدوات لم تخطر على البال.. أين «البوصَلَةُ» أو «الاسْطُرلاَب» لِيَرَى ما تراه هذه الآلات الغريبة ! الرحلةَ تَطْرُقُ بَابَك وأنتَ جَالِسٌ، بارتِخَاء، في مقْعَدِك الوثير... اضغط على هذا الزرّ،

وسترَى أقصى نقطة في الأرض، خِلال ثانية وَاحِدة !!.. بل إنَّهُم يرتَحِلون الآن في السَّماء... ويرسُمُون خَرَائط المسالك والمَمالك السَّمَاويَّة... هذا صَحيح... ولكن مُتْعة الرِّحْلة أن تَلْتَحم بِجَسَدِ الأَرْضِ النَّابِض بالحياة... هذه الأجهِزَة الغَرِيبَة لا تَفُوحُ بِرَوائح التَّوابِل، ولا تسمح لك بملامسة الحَرِير، أو اختبار الذَّهَب الصَّادق بِعَضَّةٍ بسيطة من الأَسْنَان... لاَبُدَّ من الاِرْتِحَال.

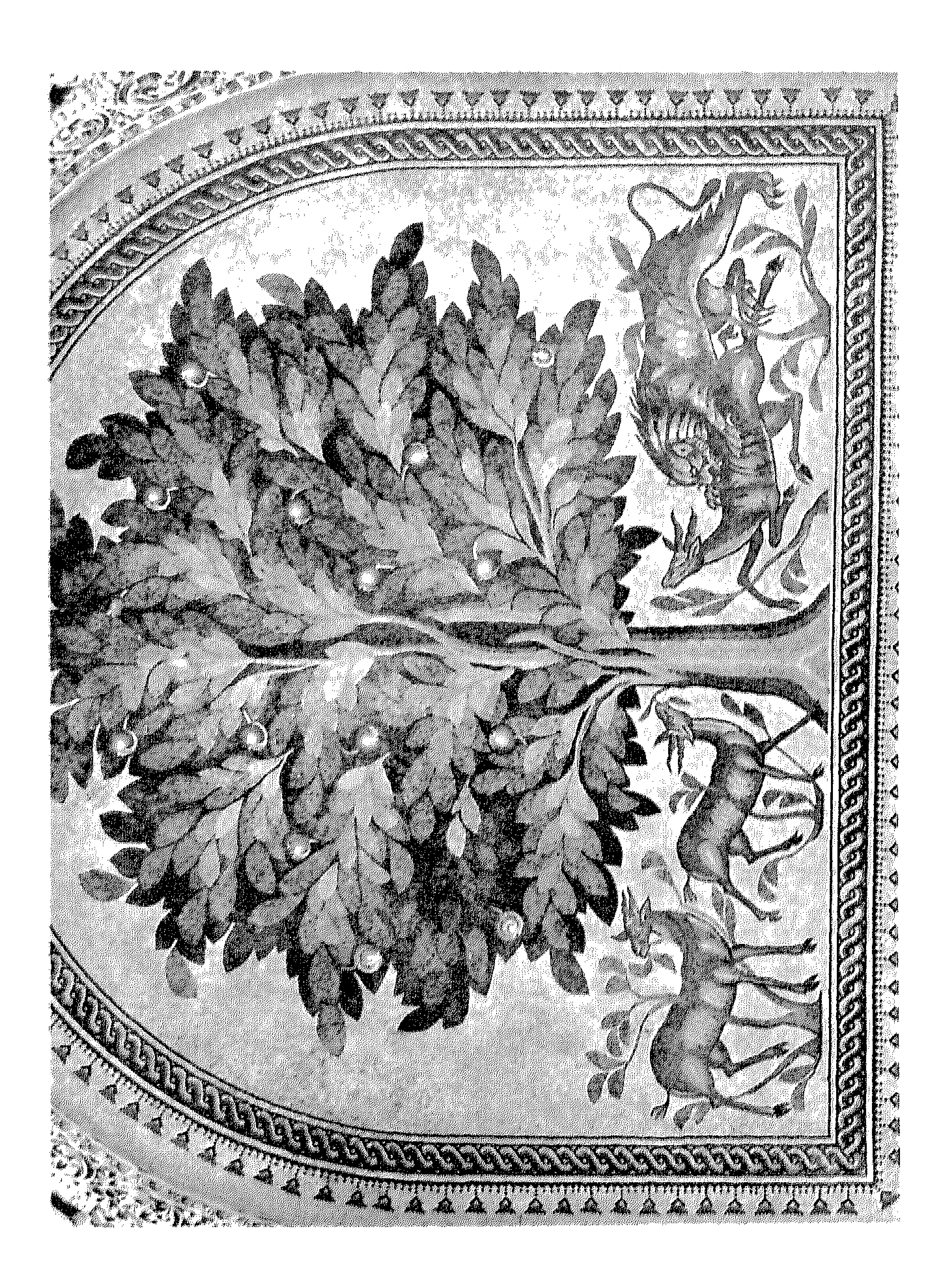
أَنَا «ابْنُ بَطُّوطَة»... أَحْيَتْنِي الحكاية، والحكَايَة ترفُضُ جوَاز السَّفَر، تُخْرِجُ لِسَانَها للجَمَارك وحُرَّاس الْحُدُود... تَرَاهم دون أن يَرَوْها.. هَا أَنا الآن، أُكْمِل الرحْلَة «تُحْفَة النُّظَّار...» لتُصْبِح تُحَفاً لنُظَّار مُتجَدِّدين، بلُغَاتٍ عَدِيدَة، وَحِكَايَات بِكُلِّ ٱلأَلْسِنَة... بِفَضْل ٱلْحِكَايَة أَرْتَحِلُ، من جَديد، في «مَا وَرَاء الظُّلْمَة».. هَا نَحْنُ نَتَبَادَلُ المَوَاقِع، فَبَعْدَ أن أَدَّيْتُ دَيْنَه في رِحْلتي، عنْد اخْتِطَافه في الطَّريق، أَعُودُ إلى مُوَاصَلَةِ الطَّرِيق لأَتَرَسَّمَ خَطَواتِه بأرض الشمال. هَا هُمْ حَفَدَةُ «الْفَايْكِينج» أو «أهل الشمال» يسْتَمِعُونَ إلى حِكَايَةِ ٱلْجَدَّاتِ عَنْ رِحْلَتي الجَديدة بلُغَاتِهِم الْمُتَعَدِّدَةِ، عَلَى إيقَاع طَقْطَقَاتِ ٱلْمِدْفَآتِ ٱلْمُدَغْدَغَة.

أَنَـا

أَنَا «ابْنُ بَطُّوطَة»... رَأَيْتُ مَا رَأَيْت.. وَسَمِعْتُ مَا سَمِعْتُ وكَتَبْتُ ما كَتَبت ولَم أقُل إلاَّ الحَقِيقَة... لم أُعَبِّىء جَيْشاً كما فعل ويفعل وسَيَفْعَل العديدون. «كرِيسْتوف كُولمب»، «فاسكو دي جَاما»، «دي فوكو»، «نابليون»، «لورنس العرب»... مغامِرون وباحثون عن الثراء، ولصوص أو قطاع طرق، علماء ومؤرخون، مجانين وعقلاء... لم أقل إلا الحقيقة... ذكرتُ شيوخي، وكل الَّذِينَ ارتَحلُوا، عَرَباً وعجماً، و«من علمَنِي حَرْفاً كُنْتُ لَهُ عَبْداً».. اهْتَدَيْتُ بهم في الحلِّ والتِّرحَال... ولكن ها هو «فَاسْكُو» يصْرخُ في مكبِّر الصوت من على ظهر أشلاء سَفِينَتِه : «أَنَا أَوَّل مَنْ وَصَلَ إِلَى بِلاَدِ ٱلْهِنْدِ».. وتَنَاسَى أن عَيْن التاريخ لا تَنَام... وليرجِع إلى مُذَكِّرَاتِه حَتَّى لا تختلط علَيْه الأرْقَام.

أَنَا «ابنُ بَطُّوطَة»... لاَ أَعْرِفُ إلاَّ ٱلْحَقِيقَة.. الرِّحْلة شرفُ ٱلرَّحَّالَة.. الرِّحْلَة أَخْلاَقٌ.. لَمْ أَقُلْ، كَمَا قَالَ «فَاسْكُو» : الذَّهَب أمامكُم والذَّهَبُ وَرَاءَكمْ... قلْتُ : «بِاسْم ٱللَّه مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا»... وسِرْت في الأَرْضِ بَاحِثاً عن الحَقِيقَة... أما الذَّهَب فَمَطْرُوحٌ عَلَى قَارِعَة الطَّرِيقِ.

أنَا «ابنُ بطُّوطة»، قَارَّتي أو أرْضِي هي الحقِيقَة... والحقيقَة لا تَمُوت، وَرِحْلَتِي مَازَالَتْ مُسْتَمِرَّة....



نعم، رحلتي مازالت مستمرة... قد تَنْتَهِي الرحلةُ في المكان وَتَسْتَمِرُّ في الزمان. تَذْكُرون ما كَرَّرته طِوالَ رِحْلاَتِي إلى بلاد العرب أو بلاد العجم : نهايةُ الطريق بدايةٌ لرحلة جديدة قد تكون أَمَرَّ وأصعب. وما على الرحّالة إلا الصّبر... وقد يَخْرُجُ منها سَالِماً غانِماً أو قد يَرْجِعُ صِفْرَ اليَدَيْنِ ! في الرّحلة الأولى كان دَلِيلِي كتاَب الله في الْيَقَظَةِ والمَنَامِ... وكل الذين مَرُّوا بِهَذِهِ الأَمْكِنَةِ وَمَن تَبِعَهُم بإحسان... ودَلِيلِي أيضاً علامات الطريق بَشَراً كان أو نباتاً أو حيواناً أو حشرةً. فَالنَّمْلَةُ الضَّعيفَةُ قد تَهْدِيك إلى نَبْع يُطفِيء عَطَشَكَ وَتَعْجِزُ عنْهُ آلات المَسْح والكَشْفِ !!

أما في الرِّحلةِ الثانية، فهي رحلة المعاناة التي قد تَعْجِزُ عن تَحْدِيدِ مَصادِرها وَمَكامِنِها. المُعاناة وَارِدَةٌ في الرِّحلتيْن.. لكن مُعاناة الرحلة الأولى وَاضِحَة لِلْعَيَان. فهي قد تأتي من الخارج مع كَواسِرِ الطَّيْرِ، أو جَبَرُوتِ الهواء والتُّراب والماء والنّار والإنسان الذي تَحُلُّ فيهِ هذِه العَنَاصِرُ الأربَعَةُ فَيَأْتِي على الأخْضَرِ والْيَابِسِ... ولو حاولت إحْصَاء ما تَعَرَّضْتُ له أثناء حِلّي وتِرْحالِي لَما كَفَتْنِي سودُ الصَّحَائِفِ !... ومع ذلِكَ، يَهُونُ الأمر أمام معاناة الرحلة الثانية، رِحْلَةِ الحِكَايَةِ... الحِكاية تُحْيِي، كما أخْبَرْتُكُمْ بذلك قبل قليل، الرحّالة. الحكَاية مِلْكٌ للجَمِيع.. و«ابن بطوطة» مِلكٌ لكل الْحَكَّائين في الماضي والحاضِر والمستَقْبَل..

حَتّى الذين لم يَحْصُل لِي شَرَف التَّعَرُّف عليهم، أو لم أُزَامِنْهُم زماناً أو مكاناً.. حتى الذين سَيَرْتَحِلون بَرّاً أو بَحْراً أو جَوّاً... كُلُّ هؤلاء سيذكرون هذه الرّحلة التي سَجَّلت ما عَجَزَت عنه دقائق العُلُوم وغريب الآلات والأدوات.

قُلْتُ وأقُول : الرحلة الثانية، رحلة الحكاية، رحلة المُكابَدَة التي تُلازِمُكَ، لَيْلَ نَهَار، وقَدْ تَخْطِفُ اللُّقْمَةَ من فَمِكَ فَتَظل يَدُك مُعَلَّقَةً بين السماء والأرض، بين أصابع القلم و «أصابع الْفَم» !! وقد يَخْتَلِطُ عليك الأمر فَتَكْتُبُ باللُّقْمَةِ عِوَضَ أن تَكْتُبَ بالفِكْرَة... فالرحلة ليست هي حكاية الرحلة... وإذا كانت علامات الطريق واضِحَةً، كمَا أسْلَفْت، في الرحلة الأولى، فإن علاماتِ طريق الحكاية منعدمةٌ تمامَ الانْعِدام... الحكايَة لا دليل لها إلا صاحبها.. حكاية الرحلة أو رِحلة الحكاية نَابِعَةٌ من أرض بِكْر لا تَأْتَمِرُ بأوامِر الأَوامِر أو النَّواهِي... أرْضُها مَزْرُوعَةٌ بِالْخَيَالِ الحقيقي وأ بِحَقِيقَةِ الْخَيَالِ. والْحَقِيقَةُ واحِدَةٌ سواء في رحلة العلامات أو الخيالات ! صَدِّقوني... لَوْلاَ الحكاية، حِكاية الرّحلة، لما عرفت بلاد الصُّفْرة أو السَّوادِ أو السُّمْرَة أو الْبَيَاضِ... جَرِّبُوا الحِكايَة عن أماكن تَمُرُّون بِها كُلَّ يَوْمٍ وستظْهَرُ لكم الأعَاجِيب.. الجِدار الخارجي لمَنْزِلكُم، لو حكَيْتُم عنه، لَنَطَقَ الطِّلاءُ الْبَاهِتُ بما حَمَلَهُ من كِتاباتٍ ذكرت كل ما قَدْ يَخْطُرُ، أو قَدْ لاَ يَخْطُر، بالبال ! رُسوم لأَبْطَال الْحَارَاتِ وَمَفْتُولي

عَضَلاَت الدُّروب الْخَلْفَيِة والأزقَّةِ الصَّدِيقَة، أشْلاءُ مُلْصَقاتٍ لمشروباتٍ أو حلْوى ذائِعَة الصِّيت، ولم يَبْقَ مِنْها إلا الذِّكْرَياتُ الطَّيِّبَةُ.

جَرّبوا أن تَحْكُوا عن رحلاتكم ولو كانت مُجَرّدَ أمتار قلائل... رحلة الذهاب بين المنزل والمدرسة، ورحلة الإياب التي كَما أَخْبَرْتُكُم في البداية، تَخْتَلِفُ عن رحلة الذَّهاب... أعرف أحد الرحّالين الذي كتب عن رحلته داخِل حُجْرَة بِخانٍ، أو فندقٍ بلُغَة أيّامِكُم ــ رَمَتْهُ الأقْدارُ إليه... رِحْلة شغلت مآت الصفحات... ليست العِبرة بالمكان الذي قد يَسَعُ قارَّةً بأكْمَلِهَا، العبرة بالْحَاكي قبل الحَكْي. فَـ«ثُقْبُ» النَّمْلَةِ لا تَخْتَرقُ مَجَاهِلَهُ ألات الرَّصد... ثُقْبٌ يساوي قَارَّةً بِأَكْمَلِها... النَّمْلَةُ لا تَملُّ مُحاكاةَ، أو حِكايَةَ، ما تَقُومُ به صيفاً، وَلاَ تَمَلُّ وَصَايَاها لأبنائِها شتاءً... ولكنها تَكْتَشِفُ في كل مَوْسِمٍ من الموسِمَيْن وَجْهاً جديداً للحكاية... جرّبوا الحكاية عن أماكن مررتُم بها مُرورَ الكِرامِ ولكنها، بِفَضْلِ الحِكاية، أصبحت أمكنة جديدة، سَمَحَتْ لكُم بتفسير نظرة إنسان اصطدتم بها في زاوِيَة من زَوَايا الطريق. أو قد تُخْبِرُكُم هذه الحكاية بِسِرِّ حفيف الشَّجر وَخرير الماء... نَمرُّ يَوْمياً على هذه الأشياء دون أن نَحْكِي عَنْها، ولو حَكَيْنا عن جزء منها، جزء صغير من العالم قد لا يتجاوزُ حَبَّة عدس، لفهمنا ما تَعْجِزُ عنه القواميس...

احْكِ، فأنت حُرّ. الحكاية حُريةٌ، حرية الحواس الخمس، وسادِسُها الخَيَال. احِكِ فالحِكايَةُ لا يُمْكِنُ أن تتكَرَّرَ مرَّتَين... الْبَحْرُ واحد، سواء كان بحر الظلمات أو بحر الصّين... ذلكَ ما خُيِّلَ إليَّ، وأنا أرْنُو صَدْرِ الشِّراعِ المُنْتَفِخِ ببحر الظُّلمات، أو إلى الْحَرَكةِ المِرْوَحِيَّة الْهَادِئَةِ لِشِراعِ «الْجَنْكِ» الْخيْزُراني، وأنا بِبَحْرِ الصّين. البحر واحد، والماء واحد والحِكاية مُخْتَلِفَةٌ تمامَ الاخْتِلاف عن لَحَظَات المُرور بالبحرين عشَرات المَرَّات.. لو لم أحْكِ عن البحرين، لما كان الشِّراعُ الأبْيَضُ، بِبَحْرِ الظُّلُماتِ، جَنَاحَ نَسْرٍ أَحْلُم بامتطائِه فِراراً من ظُلْمَة المكان والوِجْدان... لو لم أحْكِ عن البَحْرَين، لما كان شِراعُ «الْجَنْكِ» الصِّيني مِرْوَحةً سِحْريةً تُخَفِّفُ عَنِّي سُيُولَةَ صُفْرَةِ الموتِ التي سالَت عَرَقاً مِدْراراً... صُعود الجبال، أخَفُّ من صُعودِ وِدْيان الحِكاية... الحكاية اسْتِباقٌ لِكُلِّ الأزمِنة... البارحةُ، البارِحَةُ فقط تَسَرْلَلْتُ بذَرّات الضوءِ المُنْبَعِثِ من «كَامِيرا» تَحْكِي عن رحلاتي المتجدّدَة... أجْنِحَةٌ نُورانية قَفَزَتْ بِي، قبل أن يَرْتَدَّ إليك طَرْفُك، إلى كل الأماكن دُفْعَةً واحِدَةً. بِفَضل هذه الأشِعَّة الهادئة، لم تستغرق حجاتي سوى ست دقائق، وأصبحت المسافة بين «بلاد السُّودان» و«بلاد الصّين» تَقْطَعُهَا حَرَكَةٌ بسيطَةٌ بين الأصْبع وأحَدِ الأزْرَارِ المبثُوثَة في كل مكان... ظُلْمَةُ هَذا المكان لا علاقة لها بـ «بلاد الظُّلمَةِ» التي يَتَداخَلُ فيها مَغْربُها بعشائِها... ظُلْمَةُ هذا المكان الذي يَحْكِي حِكايَةَ الرّحلة، بالضَّوءِ والصُّورَة والأنْغَام،

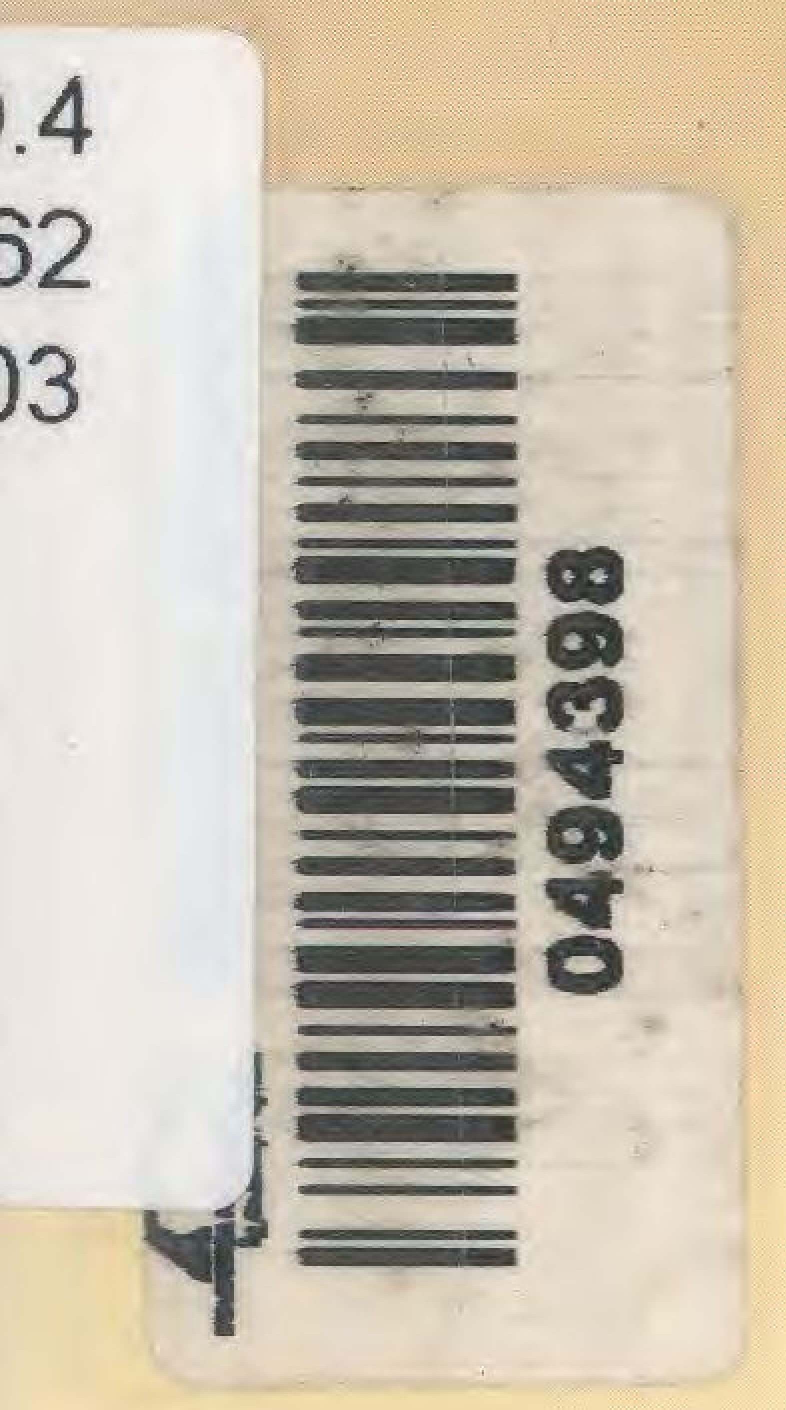
أقول : ظُلْمَةُ هذا الظلام المضيء تُقَرِّبُ منك المكانَ والزَّمان دفْعَةً واحدَة... أما في بِلاد الظُّلْمَة، فالزَّمانُ تَلتهِمُه الظلمَة، فَتُصْبِحُ عاجِزاً عن التَّمييزِ بين الرّابعَة صباحاً والرَّابعة مساءً، والمكان يَمْتَدُّ في عمق الظَّلام حتى يُخَيَّلُ إليك أنك مُعَلَّقٌ بين السماءِ والأرض، وبِحَركةٍ بسيطة تَسْقُط في فَجٍّ عَميق...

لم أَرْحَل، في حياتي، إلا رحلات ثلاث... أما رحلاتي الحقيقية فهي التي مازالت مستمرة إلى الآن... مستمرة ما دامت شهوة الارتحال خُبْراً يومياً لا يُغادِر الإنسان حَتَّى وإن لم يُغَادِر المكان.

عبد الرحيم مودن

الفهرس

جرّبوا أن تَحكُوا عن رحلاتكم ولو كانت مُجرّدَ أمتار قلائل... رحلة الذهاب بين المنزل والمدرسة، ورحلة الإياب التي كَما أَخبَرْتُكُم في البداية، تَختَلِفُ عن رحلة الذّهاب... أعرف أحد الرحّالين الذي كتب عن رحلته داخِل حُجْرَة بِخانٍ، أو فندقٍ بلُغة أيّامِكُم ـ رَمَتْهُ الأَقْدارُ إليه... رِحْلةٌ شغلت مآت الصفحات... ليست العِبرة بالمكان الذي قد يَسعُ قارَّةً بأَكْملِهَا، العبرة بالْحَاكي قبل الحَكْي. فـ«ثُقْبُ» النّمْلَةِ لا تَختَرقُ مَجاهِلَهُ آلات الرَّصد... ثُقبٌ يساوي قارَّةً بأَكْمَلِها... النّمْلَةُ لا تَملُّ مُحاكاةً، أو حِكايَةً، ما تَقُومُ به صيفاً، ولاَ تَملُّ وَصَايَاها لأبنائِها شتاءً... ولكنها تَكْتَشِفُ في كل مَوْسِمٍ من الموسِمَيْن وَجْهاً جديداً للحكاية... جرّبوا الحكاية عن أماكن مررتُم بها مُرورَ الكِرامِ ولكنها، بِفَضْلِ الحِكاية، أصبحت أمكنة جديدة، سَمَحَتْ لكُم بتفسير نظرة إنسان اصطدتم بها في زاوِيَة من زَوَايا الطريق. أو قد تُخبِرُكُم هذه الحكاية بسِرِّ حفيف الشَّجر وَخرير الماء... نَمُرُّ يَوْمياً على هذه الأشياء دون أن نَحْكِي عَنْها، ولو حَكَيْنا عن جزء منها، جزء صغير من العالم قد لا يتجاوزُ حَبَّة عدس، لفهمنا ما تَعْجزُ عنه القواميس...



22 د.